فهرس

رسالة التوحيد

تأليف

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

رضى الله عنه

تأسف دار المنار لأصحابها ورثة المرحوم السيد الإمام محمد رشيد رضا ١٤ شارع صفية زغلول أمام وزارة المعارف بالقاهرة أن بعض ذوى الضمائر الخربة قد طبع هذه الرسالة القيمة بدون وجه حق طبعات رديئة وبعضها مزور عليه بصدورها عن دار المنار فنوجه الأنظار ونحذر من المسئولية ؟

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

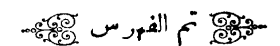
صفحة

القرآن

صفحة

صفحة

إيراد سهل الإيراد



مقدمة الناشر

(وضعها للطبعة الثانية ، وزاد عليها فى الطبعة السادسة)

بسم الله الرحمن الرحيم

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ .

سورة الروم ٣٠ : ٣٠ — ٣٢

إن الله جلت قدرته ، وبلغت حكمته ، قد برأ هذا الإنسان ، بفطرة أعلى من فطرة سائر أنواع الحيوان ، أودع فيه شعوراً بلذات وآلام غير جسدية ، فكان له بذلك حياة غير الحياة الحيوانية . أنشأه مستعداً لإدراك معلومات غير محصورة ، إذا خلقه ليحيا حياة دائمة غير محدودة ، جعل مدار حياته على التعاون والاجتماع ، ليستعين بذلك على استجلاء ما فى الكون من النظام والإبداع ، أنشأ أفراده متفاوتين فى الاستعداد للعلوم والأعمال ، ليتيسر لمجموع

النوع القيام بجميع العلوم والأعمال ، فأدناهم الخدم والبناءون والزارعون ، وأعلاهم الساسة العادلون ، والحكماء المصلحون ، فالأنبياء والمرسلون ، فهؤلاء كالمشاعر والعقول والقلوب والأرواح ، وأولئك كالأرجل والأيدى والمعد والأمعاء ، فمنهم من يقوم للنوع بأدنى ما يحتاج إليه ، ومنهم من يهديه إلى أعلى ما يتشوف استعداده إليه ، مع إحسانه التصرف فيما هو قائم عليه ، وهذه الهداية هى هداية الدين الذى هو قوام الفطرة للإنسان الناهض بها إلى طلب الكمال فى العلوم والأعمال .

سار الدين بتكميل الفطرة البشرية على منهاج التدرج فى الارتقاء كما هى السنة العامة فى جميع شئون الأحياء ، حتى أكمل الله برسالة محمد خاتم النبيين والمرسلين الإسلام ، الذى بلغ بالإنسان مرتبة الاستقلال التام ، وبين كتابه أنه دين الفطرة للناس ، من جميع الشعوب والأجناس الموافق لهم فى كل مكان ، المنطبق على مصالحهم فى كل زمان ، فهو للقبائل الساذجة كالمربى الرحيم ، وللشعوب الراقية كالإمام الحكيم كلما ساروا فى العلوم والمدنية شوطا رأوه المجلى فى ميدان السبق (٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) أقام هذا الدين سلف المسلمين المتبعون ، وخذله خلفهم المبتدعون ، حتى صاروا حجة عليه عند أكثر العالمين ، إذ زينت لهم التقاليد والعادات ، أن يجعلوه حجابا دون العلوم والفنون

والصناعات ، وأن يتفرقوا فيه مذاهب وشيعاً ، وينقصوا منه سننا ، ويزيدوا عليه بدعا ، وأن يجعلوا كتب العقائد ملأى بالجدل والمراء ، بين أهل المذاهب من الأموات والأحياء ، وقد مرت القرون ، وليس عندنا مصنف يصلح للدعوة إلى الإسلام ؛ على الوجه الذى اشترطه علماء الكلام ، وهو أن يكون على وجه يحرك إلى النظر ، ويدعو إلى البحث والتفكر ، حتى قام الأستاذ الإمام الذى كان فى هذا العصر حجة الإسلام : الشيخ محمد عبده - قدس الله روحه فى دار السلام ، فكتب (رسالة التوحيد) فى بيان حقيقة هذا الدين فجاء مع التزام الشرط اللائق بهذا العصر بما لم يأت بمثله أحد من المتقدمين لا أذكر فى بيان فضل هذه الرسالة أن علم العقائد قد ارتقى فى مصر بنشرها ، وتدريس المؤلف فى الجامع الأزهر لها ؛ ولا أن علماء الهند ترجموها بلغة الأردو ليدرسوها فى مدرسة عليكرة الكلية ، ولا أنها تدرس الآن فى الأزهر وسائر المعاهد الدينية ، ولا أن بعض المستشرقين ترجموها باللغة الفرنسية وطبعوها ، ولا أن علماء الأقطار الذين اطلعوا عليها قد كتبوا لمؤلفها من منثور الثناء ومنظومه ما يزيد أضعافاً على حجمها ، ولا أن بعض علماء النصارى قرظوها ، وبعض أحرارهم تبرعوا بنسخ منها وزعوها ، وأن بعضهم قالوا عند ما قرءوها : لو كان ما فى هذه الرسالة هو الإسلام لكنا أول من يدخل فيه ، ولكنها حكمة الشيخ محمد عبده الذى نؤمن بفضله ، وعلو كعبه ، وقد شرحت هذا فى الجزء الأول من تاريخ الأستاذ

الإمام ، وإنما أقول هنا إنه لا يقدر هذه الرسالة حق قدرها إلا من تدبر القرآن وفهمه ، وأحاط بالسيرة النبوية ونشأة الإسلام وتاريخه ووقف على ماطرأ عليه من البدع والأهواء ، وما وصل إليه علم الكلام من الارتقاء ، واطلع على ماكتبه فلاسفة أوربة فى الانتقاد على الأديان ، مع ماكتبوه فى بيان مزاياها وفى علوم النفس والأخلاق والاجتماع البشرى والعمران لم تدع الرسالة شبهة على الدين إلا وكشفتها ولا عقيدة من عقد المشكلات إلا وحلتها ، ولكن الشبهة تذكر فيها غالباً بطريق الإيماء والتلويح ، دون الإبانة والتصريح وذلك أدلى أن لا يشك الضعيف ، ولا يشتغل القوى عن المقصد الشريف ، وقد أشار إلى ذلك المصنف فى فاتحتها بقوله « رامياً إلى الخلاف من مكان بعيد ، حتى ربما لا يدركه إلا الرجل الرشيد »

ولولا ماذكره فى أولها من الاصطلاحات الكلامية لكان نفعها أكبر . وإقبال القراء عليها أكثر ، فإن أكثر أهل هذا العصر لا يفهمون تلك الاصطلاحات ، بل أصبحت عندهم من المنفرات ، وقد قلت هذا للمؤلف فاعترف بصحته .

أملى الأستاذ الإمام جل هذه الرسالة ببيروت فى سن الشباب ، ثم أخذ مسودتها من بعض الطلاب . فزاد فى أصلها ، وبادر إلى طبعها ، ثم قرأها فى الجامع الأزهر على الألوف من العلماء ونجباء المجاورين ، فظهر له فيها أغلاط لغوية ومسائل تحتاج إلى إيضاح ؛ فكان يكتب مايراه من التنقيح والتصحيح فى حواشى النسخة التى

يقرأ بها الدرس ، ثم جمع جميع ماصححه ونقحه فى جدول فكان ذلك فى سبعين موضعا أو أكثر ، وبقى كلمات نادرة قدسها عنها مع تصحيحه فى مواضع أخرى لمثلها ، فنبهت على بعضها فى الحواشى مع تصحيحها وتركت باقيها على أصلها ولم أزد من عندى إلاعدد السور والآيات فى شواهدها .

ولما كتب إلى صديق حموده بك عبده أخو المؤلف يأذن لى بإعادة طبع الرسالة أعطانى الجدول فصححت طبعتى معارضة عليه ، وعلى نسخة المؤلف ، وعلقت عليها حواشى قليلة سمعت بعضها منه فى الدرس ، ولولا أنه نهى عن شرحها ، ووضع الحواشى لها ، لجاز لى أن أكثر من هذه التعليقات فأجعلها سفراً كبيرا ، ولكن مارآه رحمه الله هو الصواب وما جاء به هو الحكمة وفصل الخطاب .

وقد طبعها بعض تجار الكتب بغير حق طبعة رديئة كثيرة الأغلاط ولو لم يكن فيها إلا مخالفتها لما صححه ونقحه مؤلفها فى سبعين موضعاً منها حتى بالزيادة والنقص لكفى فى عدم الاعتماد عليها ، فطبعات المنار هى المعتمدة وعليها المعول ، ولايستغنى عنها من طالع الطبعة الأولى ، فرحم الله الإمام ، ونفع برسالته الأنام ، آمين ؟

الناشر

(محمد رشيد رضا الحسينى)

صاحب مجلة المنار

رسالة التوحيد

تأليف

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

طبعها بإذن الورثة مصححاً إياها على نسخة المؤلف وعلى جدول وضعه (رح)
لتصحيحها، ومعلقا عليها تعليقات استفاد بعضها منه فى الدرس

السيد الإمام محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

رحمه الله تعالى

تطلب من الناشر

مكتبة القاهرة

لصاحبها، على يوسف سليمان

شارع الصنادقية . بميدان الأزهر بمصر

الطبعة الثامنة عشرة سنة ١٣٨٥ هـ — ١٩٦٥ م

دار الطباعة المحمدية
بالأزهر بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ ٢ الرَّحمن الرَّحيم ٣ مَالك يَوْم الدِّين ٤ إياكَ نَعْبُدُ وإياكَ نَستَعينُ ٥ إهدنا الصراط المسْتقيم ٦ صراطَ الذينَ أنعَمْت عليهمْ غيرِ المغضُوبِ عليَهمْ ولا الضَّالين ٧ .

(وبعد) فلما كنت فى بيروت من أعمال سورية ، أيام بعدى عن مصر عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية ودعيت فى ١٣٠٣ إلى تدريس بعض العلوم فى المدرسة السلطانية ، ومنها كان علم التوحيد رأيت أن المختصرات فى هذا الفن ربما لاتأتى على الغرض من إفادة التلامذة ، والمطولات تعلو على أفهامهم والمتوسطات ألفت لزمن غير زمانهم ، فرأيت من الأليق أن أملى عليهم ماهو أمس بحالهم ، فكانت أمالى مختلفة تتغاير بتغاير طبقاتهم ، أقربها إلى كفاية الطالب ما أملى على الفرقة الأولى فى أسلوب لا يصعب تناوله ، وإن لم يعهد تداوله ، تمهيد مقدمات وسير منها إلى المطالب من غير نظر إلا إلى صحة الدليل ، وإن جاء فى التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف ، رامياً إلى الخلاف من مكان بعيد حتى ربما لا يدركه إلا الرجل الرشيد . غير أن تلك الأمالى لم تحفظ إلا فى دفاتر التلامذة ولم أستبق لنفسى منها شيئا وعرض بعد ذلك ما استقدمنى إلى مصر وكان من تقدير الله أن اشتغل بغير التعليم ،

حتى أتى النسيان على ما أمليت وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت ، إلى أن خطر لى من مـــدة أشهر خاطر العود إلى ما تهواه نفسى ، ويصبو إليه عقلى وحسى ، وأن أشغل أوقات فراغى بمدارسة شىء من علم التوحيد ، علماً منى أنه ركن العلم الشديد ، فذكرت سابق العمل ، وتعلق بمثله الأمل ، وعزمت أن أكتب إلى بعض التلامذة ليرسل إلى ، ما تلقاه بين يدى ، لكيلا أنفق من الزمن ما أنا فى أشد الحاجة إليه فى إنشاء ما أرى التعويل عليه ، وذكرت ذلك لأخى (١) فأخبرنى أنه نسخ ما أملى على الفرقة الأولى . فطلبته وقرأته فإذا هو قريب مما أحب ، قد يحتاج إليه القاصر ، وربما لا يستغنى عنه المكاثر ، على اختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حد من القول محدود ، قد سلك فى العقائد مسلك السلف ، ولم يعب فى سيره آراء الخلف ، وبعد عن الخلاف بين المذاهب ، بعد مليه عن أعاصير المشاغب ، ولكن وجدت فيه إيجازا فى بعض المواضع ، ربما لا ينفذ منه ذهن المطالع ، وإغفالا لبعض ما تمس الحاجة إليه ، وزيادة عما يجب فى مختصر مثله أن يقتصر عليه ، فبسطت بعض عباراته ، وحررت ما غمض من مقدماته ، وزدت ما أغفل وحذفت ما فضل ، وتوكلت على الله فى نشره ، راجياً أن لا يكون فى قصره ما يحمل على إغفال أمره ، أو يغض من قدره . فما من أحد بدون أن يعين ولا بفوق أن يعان . ولله وحده ولى الأمر وهو المستعان

(١) هو حمودة بك عبده وكان تلميذا فى المدرسة السلطانية فى ذلك العهد

مقـــدمات

التوحيد : علم يبحث فيه عن وجود الله وما يجب أن يثبت له من صفات ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم .

أصل معنى التوحيد : اعتقاد أن الله واحد لا شريك له . وسمى هـــذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو إثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلق الأكوان ، وأنه وحده مرجع كل كون ومنتهى كل قصد (١) وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم كما تشهد به آيات الكتاب العزيز ، وسيأتى بيانه .

---

(١) فات الأستاذ أن يصرح بتوحيد العبادة ، وهو أن يعبد الله وحده ولا يعبد غيره بدعاء ولا بغير ذلك مما يتقرب به المشركون إلى ما عبدوا معه من الصالحين والأصنام المذكرة بهم ، وغير ذلك ، كالنذور والقرابين تذبح بأسمائهم أو عند معابدهم ، وهذا التوحيد هو الذى كان أول ما يدعو إليه كل رسول قومه ، بقوله : (اعبدوا الله ما لكم من إله غيره) .

وقد يسمى علم الكلام إما لأن أشهر مسألة وقع فيها الخلاف بين علماء القرون الأولى هى أن كلام الله المتلو حادث أو قديم ، وإما لأن مبناه الدليل العقلى ، وأثره يظهر فى كل متكلم فى كلامه وقلما يرجع فيه إلى النقل اللهم إلا بعد تقرير الأصول الأولى ثم الانتقال منها إلى ماهو أشبه بالفرع عنها ، وإن كان أصلا لما يأتى بعدها وإما لأنه فى بيانه طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه بالمنطق فى تبيينه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر وأبدل المنطق بالكلام (١) للتفرقة بينهما .

* * *

هذا النوع من العلم ـ علم تقرير العقائد وبيان ما جاء فى النبوات ـ كان معروفا عند الأمم قبل الإسلام ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده وكان البيان من أول وسائلهم إلى ذلك لكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى وبناء آرائهم وعقائدهم على مافى طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الإلزام بالعقائد وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض . وكثيراً ما صرح

---

(١) الصواب : وأبدل الكلام بالمنطق . قال فى المصباح المنير : وأبدلته بكذا إبدالا ـ نحيت الأول وجعلت الثانى مكانه .

الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل نتائجه ومقدماته . فكان جل مافى علوم الكلام تأويل وتفسير . وإدهاش بالمعجزات ، أو إلهاء بالخيالات يعلم ذلك من له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية .

جاء القرآن فنهج بالدين منهجاً لم يكن عليه ماسبقه من الكتب المقدسة . منهجاً يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه . فلم يقصر الاستدلال على نبوة النبى ﷺ بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة . بل جعل الدليل (١) فى حال النبى مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ولو فى مثل أقصر سورة منه ، وقص علينا من صفات الله ماأذن الله لنا أو ماأوجب علينا أن نعلم لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ولكنه أقام الدعوى وبرهن(٢) وحكى مذاهب المخالفين

---

(١) أى الدليل الذى هو العمدة فى التحدى وإن وجد غيره بل هذا الدليل مركب من عدة أدلة ، أولها حال النبى فى أميته وظهور العلم على لسانه فى كهولته ، ومنها إعجاز القرآن ببلاغته ، وأقوى منه إعجازه بما فيه من العلوم الإلهية والتشريع والإخبار بالغيوب الماضية والمستقبلة بما بينه المؤلف فى الكلام على نبوة محمد ﷺ ،

(٢) قال فى الأساس : « أبره » جاء بالبرهان ، و « برهن » مولد .

وكر عليها بالحجة (١) وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام والإتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه ، حتى إنه فى سياق قصص أحـــوال السابقين كان يقرر للخلق سنة لا تغير (٢) وقاعدة لا تتبدل ، فقال (٤٨ : ٣٢ سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وصرح (٣) (١٣ : ١١ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٣٠ : ٣٠ فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله) واعتضد بالدليل حتى فى باب الأدب فقال (٤١ : ٣٤ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم) وتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس على لسان نبى مرسل ، بتصريح لا يقبل التأويل .

وتقرر بين المسلمين كافة — إلا من لا ثقة بعقله ولا بدينه — أن من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به إلا من طريق العقل كالعلم بوجود الله وبقدرته على إرسال الرسل وعلمه بما يوحى به إليهم

---

(١) أى حمل عليها مجالداً لها بالحجة .

(٢) تغير — بفتح التاء — أصله تتغير حذف منه التاء وأثبتها فى تتبدل على الأصل ، ويجوز أن تكون « تغير » بضم التاء بالبناء للمفعول أى لا يغيرها أحد ولا تتبدل بنفسها .

(٣) « صرح » يتعدى بالباء . وهنا قدر بعده القول أوضمن معناه .

وإرادته لاختصاصهم برسالته وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة وكالتصديق بالرسالة نفسها ، كما أجمعوا على أن الدين إن جاء بشيء قد يعلو على الفهم ، فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل .

جاء القرآن يصف الله بصفات — وإن كانت أقرب إلى التنزيه عما وصف به من مخاطبات الأجيال السابقة — فمن صفات البشر ما يشاركها فى الاسم أو فى الجنس (١) كالقدرة والاختيار والسمع والبصر ، وعزا إليه أموراً يوجد ما يشبهها فى الإنسان كالاستواء على العرش وكالوجه واليدين ، ثم أفاض فى القضاء السابق وفى الاختيار الممنوح للإنسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين ، ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ووكل الأمر فى الثواب والعقاب إلى مشيئة الله ، وأمثال ذلك مما لا حاجة إلى بيانه فى هذه المقدمة .

فاعتبار حكم العقل ، مع ورود أمثال هذه المشابهات فى النقل ، فسح مجالا للناظرين ، خصوصا ودعوة الدين إلى الفكر فى المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطة بشرط ، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد إلى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو فى

(١) قولان : اختار المؤلف فى الدرس أولهما .

التجريد ولا دنو من التحديد (١) .

مضى زمن النبى صلى الله عليه وسلم وهو المرجع فى الحيرة ، والسراج فى ظلمات الشبهة ، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر فى مدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء : ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم ليبتلوها بالبحث فى مبانى عقائدهم . وما كان من اختلاف قليل رد إليهما . وقضى الأمر فيه بحكمهما ، بعد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين إن كانت حاجة إلى الاستشارة ، وأغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لا فى أصول العقائد . ثم كان الناس فى الزمنين يفهمون إشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيما يوهم التشبيه ، ولا يذهبون وراء ما يفهمه ظاهر اللفظ (٢) .

---

(١) الغلو فى التجريد مذهب المعطلة منكرى الصفات ، والدنو من التحديد مذهب المشبهة ، وبينهما مذهب السلف الوسط ، وهو أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ؛ ويقرب منه مذهب متكلمى الخلف الذين يمنعون التعطيل والتمثيل ، دون التأويل لبعض الصفات والأفعال .

(٢) التحقيق أن السلف كانوا يأخذون فى الصفات الإلهية بمعانى الألفاظ فى اللغة مع تنزيهه تعالى عن مشابهة شىء من خلقه ؛ فكما أن ذاته ليست كغيرها من الذوات ، فكذلك صفاته وأفعاله ، ولا يذهبون إلى ما وراء ذلك من لوازم ظاهر اللفظ ، كالتشبيه والتحديد المأخوذ من إطلاقه فى الأصل على المخلوق ، فإن التنزيه قد جعل المشاركة فى اللفظ إسمية أو جنسية لا شخصية ، كما تقدم فى الصفحة السابقة .

كان الأمر على ذلك إلى أن حدث ماحدث فى عهد الخليفة الثالث وأفضى إلى قتله . هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الإسلام وأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها ، وبقى القرآن قائماً على صراطه[1] (١٥ : ٩ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وفتح للناس باب لتعدى الحدود التى حدها الدين ، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى ، وأشعر الأمر قلوب العامة أن شهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس من لم يملك الإيمان قلوبهم ، وغلب الغضب على كثير من الغالين فى دينهم . وتغلب هؤلاء وأولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير مايحبون .

وكان من العاملين فى تلك الفتنة عبد الله بن سبأ : يهودى أسلم وغلا فى حب على كرم الله وجهه حتى زعم أن الله حل فيه[2] .

---

(١) أى وقعت الصدمة على الإسلام وعلى أهله الذين أحدثوا فيه فأثرت فيهم ولم تؤثر فى القرآن الذى كفل الله حفظه فبقى حجة عليهم .

(٢) إن ابن سبأ فعل مافعل بغضاً فى الإسلام لاحباً فى على ، فإسلامه كان خديعة . وله نظراء فى ذلك من اليهود ، ومثلهم بعض مجوس الفرس الذين أظهروا الإسلام ، وتستروا بالتشيع لعلى ولآل البيت عليهم السلام ، كلهم كانوا يقصدون إفساد الإسلام وإزالة ملكه بالتفريق بين أهله وأشار المصنف إلى ذلك فيما ترى فى ص ١٤

وأخذ يدعو إلى أنه الأحق بالخلافة ، وطعن على عثمان ، فنفاه فذهب إلى البصرة وبث فيها فتنته ، فأخرج منها ، فذهب إلى الكوفة ونفث مانفث من سم الفتنة ، فنفى منها . فذهب إلى الشام فلم يجد فيها مايريد ، فذهب إلى مصر فوجد فيها أعوانا على فتنته . إلى أن كان ماكان مما ذكرناه ، ثم ظهر بمذهبه فى عهد على ، فنفاه إلى المدائن ، وكان رأيه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده .

توالت الأحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ماعقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان إلى الأمويين . غير أن بناء الجماعة قد انصدع . وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة ، وأخذت الأحزاب فى تأييد آرائهم ، كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل ، وكانت نشأة الاختراع فى الرواية والتأويل وغلا كل قبيل فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين ، وغلا الخوارج فكفروا من عداهم ، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية ، وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا ، إلى أن تضعضع أمرهم بعد حروب أكلت كثيراً من المسلمين ، وانتشرت فلولهم فى أطراف البلاد ، ولم يكفوا عن إشعال الفتن ، وبقيت منهم

بقية إلى اليوم فى أطراف أفريقيا وناحية من جزيرة العرب (١) وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليا ، أو بعض ذريته إلى مقام الألوهية أو مايقرب منه (٢) وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد .

(١) إنه يعنى بهذه البقية . الأباضية الذين فى طرابلس الغرب وصحراء الجزائر وزنجبار من أفريقية ، وفى عمان من جزيرة العرب . ولكن الأباضية يتبرءون من الخوارج الذين يكفرون من يخالفهم كالصفرية والأزارقة . ويفرقون بين الكفر المخرج من الملة كالشرك ومادونه من الفسق ، ويقولون بالإمامة ، ولكن لهم تشديداً فى قاعدة الولاية والبراءة: فيتولون الشيخين وجميع الصحابة الذين كانوا قبل خروج الناس على عثمان وما أنكر عليه الصحابة (رض) وفتنة على ومعاوية . ويقولون إن عليا هو الإمام الحق ، وإن معاوية كان باغياً بخروجه عليه ولذلك يخطئون علياً فى قبول التحكيم فى الأمر وهو يعلم أنه صاحب الحق ولهم فيمن قبلوا التحكيم ثلاثة أقوال : البراءة منهم ، والوقف فيهم، وثالثها الولاية لهم كسائر الصحابة ، وهو قول أهل السنة ، وهم فى تأويل آيات الصفات وأحاديثها بين الأشاعرة والمعتزلة . وأما العمل بالأوامر والنواهى فهم أشد الفرق الإسلامية إذعانا وطاعة لها ، كالوهابية من أهل السنة لايكاد يوجد فى بلادهما تارك صلاة أو مانع زكاة أو مجاهر بكبيرة

(٢) منهم الذين رفعوه إلى الألوهية وحده ، ومنهم من جعلوها موروثة فى بعض ذريته وهم الباطنية ، ومنهم من قالوا بعصمته وعصمة بضع أفراد ذريته وغلوا فيهم على درجات مختلفة .

غير أن شيئا من ذلك لم يقف في سبيل الدعوة الإسلامية ، ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتنائية عن مثار النزاع . وكان الناس يدخلون فيه أفواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم . والمصريين والإفريقيين ومن يليهم ، واستراح جمهور عظيم من العمل في الدفاع عن سلطان الإسلام ، وآن لهم أن يشتغلوا في أصول العقائد والأحكام ، بما هداهم إليه سير القرآن . اشتغالا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظر الفكر ووجد من أهل الإخلاص من انتدب للنظر في العلم والقيام بفريضة التعليم ، ومن أشهرهم الحسن البصرى ، فكان له مجلس للتعليم والإفادة في البصرة يجتمع إليه الطالبون من كل صوب ، وتمتحن فيه المسائل من كل نوع وكان قد التحف بالإسلام ولم يتبطنه أناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم ، راغبين أن يصلوا بينه وبين ماوجدوه ، فثارت الشبهات بعد ماهبت على الناس أعاصير الفتن ، واعتمد كل ناظر على ماصرح به القرآن من إطلاق العنان للفكر وشارك الدخلاء ، من حق لهم السبق من العرفاء ، وبدت رءوس المشاقين ، تعلو بين المسلمين .

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة

ولم يتب . اختلف فيها واصل بن عطاء وأستاذه الحسن البصرى واعتزله بعلم أصولا لم يكن أخذها عنه ، غير أن كثيراً من السلف ومنهم الحسن – على قول – كان على رأى أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وإرادته (١) وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا إلى أن الإنسان فى عمله الإرادى كأغصان الشجرة فى حركاتها الاضطرارية . كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لايحفلون بالأمر . ولا يعنون برد الناس إلى أصل . وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل إلى ماشاء . سوى أن عمر بن عبد العزيز أمر الزهرى بتدوين ماوصل إليه من الحديث (٢) وهو أول من جمع الحديث .

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين ، بل امتد إلى إثبات صفات المعانى للذات الإلهية أو نفيها عنها ، وإلى تقرير سلطة العقل فى معرفة جميع الأحكام الدينية . حتى ماكان منها فروعا وعبادات (غلواً فى تأييد خطة القرآن) أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى – على ماسبق بيانه – ثم غالى آخرون – وهم الأقلون – فمحوها

(١) بل كان جمهور السلف على هذا ، وتبعهم أكثر أهل الحديث

(٢) الصواب أنه أمر بذلك أبا بكر بن محمد بن عمرو بن حزم . وأما محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى فكان يكتب السنن والآثار من تلقاء نفسه .

بالمرة ، وخالفوا فى ذلك طريقة الكتاب عناداً للأولين ، وكانت الآراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء فى العقائد ؛ كأنها مبنى من مبانى الاعتقاد الإسلامى .

تفرقت السبل بأتباع واصل (١) وتناولوا من كتب اليونان مالاق بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعاً إلى أوليات العقل ، وما كان سرابا فى نظر الوهم . فخلطوا بمعارف الدين مالا ينطبق على أصل من أصول النظر ، ولجوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة فغلب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، وأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلونهم معتصمين بقوة اليقين ، وإن لم يكن لهم عضد من الحاكمين .

عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس فى إقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين ، واعتمدوا على طاب الأنصار فيهم وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم ـ فعلا امر كثير منهم ، وهم ليسوا من الدين فى شىء . وكان فيهم المانوية واليزدية ومن لا دين له ، وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينفثون من أفكارهم

---

(١) هم المعتزلة

ويشيرون بحالهم وبمقالهم إلى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم ، فظهر الإلحاد ، وتطلعت رءوس الزندقة حتى صدر أمر المنصور بوضع كتب لكشف شبهاتهم ، وإبطال مزاعمهم .

فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتاً لم يتكامل نموه ، وبناء لم يتشامخ علوه ، وبدأ علم الكلام كما انتهى مشوبا بمبادىء النظر فى الكائنات جريا على ماسنه القرآن من ذلك .

وحدثت فتنة القول بخلق القرآن أو أزليته (١) وانتصر الأول جمع من خلفاء العباسيين وأمسك عن القول أوصرح بالأزلية عددغفيرمن المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة ، أو المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة وأهين فى ذلك رجال من أهل العلم والتقوى . وسفكت فيه دماء بغير حق . وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين .

(١) التحقيق أن كلا من القولين مبتدع فوصف القرآن بالقدم والأزلية لا أصل له من الكتاب والسنة ، ولم يقل به أحد من الصحابة ولا من التابعين ولكنه بنى على نظارية فى الرد على مبتدعى القول بخلقه من منكرى صفات الله عز وجل ، وهى أن القرآن كلام الله فهو صفة من صفاته الأزلية ، ومن ثم صار القول بقدمه من اصطلاح متكلمى أهل السنة ، وأنصار السلف من أهل الحديث ينكرون على متكلمى الأشاعرة أقوالهم فى الكلام النفسى واللفظى ، وهى فلسفة ، ليتها لم تكن ، وانظر حاشيتنا الآتية على صفة الكلام .

على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل . وما توسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع ، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية واجبة الاتباع : ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده . وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض توطين النفس عليه . وكان وراء هؤلاء قوم من أهل الحلول أو الدهريين طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحافهم بالإسلام وأفرطوا فى التأويل . وحولوا كل عمل ظاهر إلى سر باطن . وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب . بعد الخطأ عن الصواب . وعرفوا بالباطنية أو الإسماعيلية . ولهم أسماء أخر تعرف فى التاريخ فكانت مذاهبهم غائلة الدين . وزلزال اليقين . وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة .

مع اتفاق السلف وخصومهم فى مقارعة هؤلاء الزنادقة وأشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللا . وكانت الأيام بينهم دولا . ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض . واستفادة كل فريق من صاحبه . إلى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى فى أوائل القرن الرابع (١) وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من

---

(١) ولد سنة ٢٧٠ وقيل ، ٢٦٠ وتوفى سنة ٣٣٠ ونيف وقيل ٣٢٤ .

خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر ، وارتاب فى أمره الأولون وطعن كثير منهم على عقيدته . وكفره الحنابلة واستباحوا دمه . ونصره جماعة من أكابر العلماء ، كأبى بكر الباقلانى وإمام الحرمين والإسفرايني وغيرهم (١) وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة (٢) . فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان قوة الواقفين عند الظواهر . وقوة الغالين فى الجرى خلف ما تزينه الخواطر . ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد نحو (من) قرنين إلا فئات قليلة فى أطراف البلاد الإسلامية .

غير أن الناصرين لمذهب الأشعرى بعد تقريرهم مابنى رأيه عليه من نواميس الكون أوجبوا على المعتقد أن يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدى إليه من عقائد الإيمان . ذهاباً منهم إلى أن عدم الدليل يؤدى إلى عدم المدلول . ومضى الأمر على

---

(١) أى نصره هؤلاء بعد موته .

(٢) راجت هذه التسمية بعلو جاه هؤلاء النظار عند الخلفاء والأمراء وكثرة أتباعهم من العلماء . وقد كان الأشعرى معتزليا فرجع إلى مذهب أهل السنة فى أهم مسائل الخلاف بينهم وبين المعتزلة ، ثم انتهى إلى مذهب السلف من كل وجه ، وصرح باتباع الإمام أحمد بن حنبل ، كما ترى فى كتابه « الإبانة » وكذلك كبار النظار من أنصاره كإمام الحرمين وقبله والده الإمام الجوينى وبعدهما الغزالى ثم الرازى .

ذلك إلى أن جاء الإمام الغزالى والإمام الرازى ومن أخذ مأخذهما فخالفوهم فى ذلك . وقرروا أن دليلا واحداً أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها . ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو أقوى منها فلا وجه للحجر فى الاستدلال .

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض . ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة إلا تحصيل العلم ، والوفاء بما تندفع إليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول . وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاءوا وكان الجمهور من أهل الدين يكنفهم بحمايته . ويدع لهم من إطلاق الإرادة ما يتمتعون به فى تحصيل لذة عقولهم وإفادة الصناعة وتقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة فى ضمائر الكون مما أباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا فى قوله (٢ : ٢٩ خلق لكم مافى الأرض جميعا) إذ لم يستثن من ذلك ظاهراً ولا خفياً . وماكان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقبات فى سبيلهم إلى ماهدوا إليه بعد مارفع القرآن من شأن العقل وماوضعه من المكانة بحيث ينتهى إليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع وبعد ماصح من قوله عليه السلام « أنتم أعلم بشئون دنياكم[1] » وبعد

---

(١) رواه مسلم من حديث أنس وعائشة بلفظ « بأمر دنياكم » .

ماسن لنا فى غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء .

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم (الأول) الإعجاب بما نقل إليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصاً أرسطو وأفلاطون ووجدان اللذة فى تقليدهما لبادىء الأمر (والثانى) الشهوة الغالبة على الناس فى ذلك الوقت . وهو أشأم الأمرين : زجوا بأنفسهم [١] فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين . واصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة [٢] فمال حماة العقائد عليهم . وجاء الغزالى ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالإلهيات وما يتصل بها من الأمور العامة وأحكام الجواهر والأعراض ومذاهبهم فى المادة وتركيب الأجسام وجميع ما ظنه المشتغلون بالكلام يمس شيئاً من مبانى الدين واشتدوا فى نقده . وبالغ المتأخرون منهم فى تأثرهم حتى

(١) استئناف لبيان ثانى الأمرين وكونه أشأمهما حاصله أن الفلاسفة لو لم يخلطوا فنونهم بالدين ويزجوا بأنفسهم فى المنازعات الدينية لتركوا وشأنهم فى البحث وإذاً لارتقت علومهم وارتقت بها الصناعة واتسع العمران . ذكره المؤلف فى الدرس وكان من رأيه أنه يجب ألا تمزج الفلسفة والعلوم الدنيوية بالمسائل الدينية .

(٢) أى اصطدموا مصاحبين لعلومهم بما انطبعت عليه أنفس الجمهور من المنازعات الدينية .

كاد يصل بهم السير إلى ما وراء الاعتدال . فسقطت منزلتهم من النفوس . ونبذتهم العامة . ولم تحفل بهم الخاصة . وذهب الزمان بما كان ينتظر العالم الإسلامى من سعيهم .

هـــذا هو السبب فى خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة فى كتب المتأخرين كما تراه فى كتب البيضاوى والعضد وغيرهم (١) وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعاً علماً واحداً والذهاب بمقدماته ومباحثه إلى ما هو أقرب إلى التقليد من النظر . فوقف العلم عن التقدم .

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة . وتغلب الجهال على الأمر . وفتكوا بما بقى من أثر العلم النظرى النابع من عيون الدين الإسلامى . فانحرفت الطريق بسالكيها . ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين إلا تحاور فى الألفاظ أو تناظر فى الأساليب . على أن ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور (٢) .

---

(١) الظاهر أن يقال وغيرها أى الكتب ، أو غيرهما أى البيضاوى والعضد ، ولعله كان ذكر غيرهما فسقط من النسخ ولا أذكر أنه صححه فى الدرس ولم أجده فى الجدول الذى صحح ونقح به الطبعة الأولى .

(٢) يعنى أن المتأخرين أساءوا فى اختيار كتب من قبلهم وكانت طريقتهم فى التدريس البحث فى ألفاظها وأساليبها ، دون تحرير مسائل العلم وتحقيقها ، وكان يقول فيهم : إنهم يتعلمون كتبا لا علما .

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم مالم يعترف به العلم لهم . فوضعوا مالم يعد للإسلام قبل باحتماله . غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً . ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا . فشردوا بالعقول عن مواطنها . وتحكموا فى التضليل والتكفير . وغلوا فى ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم فى دعوى العداوة بين العلم والدين وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب : هذا حلال وهذا حرام . وهذا كفر وهذا إسلام . والدين من وراء مايتوهمون . والله جل شأنه فوق مايظنون وما يصفون(١) ولكن ماذا أصاب العامة فى عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم بعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟ شر عظيم . وخطب عميم

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم (٢) ينبئك كيف أسس على قواعد

---

(١) راجع ترجمة الأشعرى فى الطبقات الكبرى للسبكى .

(٢) فات المؤلف أن يذكر فى هذه الخلاصة التاريخية أنه بعد أن استفحل سلطان الأشعرية فى القرون الوسطى ، وضعف أهل الحديث متبعو السلف ظهر فى القرن الثامن المجدد العظيم شيخ الإسلام أحمد تقى الدين ابن تيميه الذى لم يأت الزمان له بنظير فى الجمع بين العلوم النقلية والعقلية وقوة الحجة . فنصر مذهب السلف على المذاهب الكلامية كلها ببرهانى العقل والنقل ، وقد أحييت مصر والهند كتبه ، وكتب تلميذه الأكبر العلامة ابن القيم بعد أن كان الاهتداء بها محصورا فى بلاد نجد ، وهى الآن تعم الشرق والغرب ، وستكون عمدة جميع مسلمى الأرض .

من الكتاب المبين . وكيف عبثت به فى نهاية الأمر أيدى المفرقين . حتى خرجوا به عن قصده . وبعدوا به عن حده .

والذى علينا اعتقاده أن الدين الإسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد . العقل من أشد أعوانه والنقل من أقوى أركانه . وما وراء ذلك فنزغات شياطين . وشهوات سلاطين . والقرآن شاهد على كل بعمله . قاض عليه فى صوابه وخطله .

الغاية من هذا العلم القيام بفرض مجمع عليه وهو معرفة الله تعالى بصفاته الواجب ثبوتها له مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به والتصديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتماداً على الدليل لا استرسالا مع التقليد . حسبما أرشدنا إليه الكتاب . فقد أمر بالنظر واستعمال العقل فيما بين أيدينا من ظواهر الكون وما يمكن النفوذ إليه من دقائقه . تحصيلا لليقين بما هدانا إليه . ونهانا عن التقليد بما حكى عن أحوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم . وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وانمحاء وجودهم المللى . وحق ما قال : فإن التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل . وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار . فهو مضلة يعذر فيها الحيوان . ولا تجمل بحال الإنسان .

أقسام المعلوم

يقسمون المعلوم إلى ثلاثة أقسام : ممكن لذاته ، وواجب لذاته ومستحيل لذاته (١) ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هى ، أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هى . والممكن مالا وجود له ولا عدم من ذاته ، وإنما يوجد لموجد ويعدم لعدم سبب وجوده . وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره ـ وإطلاق

(١) هذه القسمة عقلية وهى للحصر . لأن ما يتعلق به العلم إما ثابت قطعاً لا يقبل الانتفاء لذاته وهو الواجب ، وإما ضده وهو المستحيل وإما واسطة بينهما وهو مالا تقتضى ذاته الثبوت ولا الانتفاء ، بل يجوز لها الأمران بحسب العلل وهو الممكن فمعنى كون الشيء ممكنا أو مستحيلا أو واجبا لذاته هو كونه كذلك لغير علة اقتضت ذلك غير ذاته وحقيقته أى إن ذاته إذا تصورت مجردة من كل اعتبار لم تكن إلا كذلك ، والمراد بالإمكان والوجوب والاستحالة ما كان كذلك بحكم العقل القاطع لا العادة ، فمثال المستحيل . اجتماع النقيضين ، ككون الشيء موجوداً معدوماً فى آن واحد أى موجودا غير موجود فهذا معلوم — أى متعلق للعلم — يجزم العقل بعدمه أى عدم تحققه لذاته ، أى إن ذاته لا يمكن أن تكون ثابتة ، وليس منه مشى الإنسان على الماء ، أو طيرانه فى الهواء ، وإنما هذا مستحيل عادة ، ومثال الواجب الوجود المطلق والزوجية للأربعة فإنك لا يمكنك أن تتصور العدم المحض ولا كون الأربعة ليست زوجا . ومثال الممكن ظاهر ، فإن جميع هذه الموجودات التى ندركها بحواسنا ممكنة الوجود ، كما يعلم مما يأتى فى الرسالة .

المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز . فإن المعلوم حقيقة لابد أن يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم ، والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه فى أحكامه ، وإنما المراد ما يمكن الحكم عليه ، وإن فى صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها إلى الحكاية عنه .

(حكم المستحيل)

وحكم المستحيل لذاته ؛ أن لا يطرأ عليه وجود : فإن العدم من لوازم ماهيته (١) من حيث هى فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم

(١) يفسرون الماهية بأنها ما به الشىء ، هو هو ، ونوضح ذلك بقولنا إن ماهية الشىء ترادف حقيقته فى الجملة ، مثال ذلك . أن ما يتصوره الذهن من معنى الإنسانية الكلى الذى يوجد فى كل إنسان غير مصاب بعلة ككونه حيواناً ناطقاً عاقلا يسمى ماهية الإنسان وحقيقته ، ولكن تختلف التسمية باختلاف الاعتبار فما يتعلق فى الذهن من معنى الشىء الذى تتقوم به ذاته ويجاب به إذا سئل عنه بما هو ذلك الشىء ؟ يسمى ماهية وإنما يسمى حقيقة أو ذاتا باعتبار تحققه فى الواقع . ولذلك يطلق لفظ الماهية على ما لا تحقق له كمفهوم العنقاء ولا يطلق عليه لفظ الحقيقة ، ولازم الشىء ما لا ينفك عنه كلزوم الانقسام إلى متساويين للزوج .

وكلمة الماهية وتفسيرها والسؤال عن الشىء بما هو وما خصوه به واشترطوه فى جوابه كل ذلك من اصطلاح علم المنطق لا من أصل اللغة . فالعرب تقول ما كذا ؟ لا ما هو كذا ، وقد يجيبون عنه بأى صفة تميز الشىء المسئول عنه عن غيره .

الماهية من حيث هى عنها . وهو يؤدى إلى سلب الماهية عن نفسها (١) بالبداهة فالمستحيل لا يوجد فهو ليس بموجود قطعا . بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة (٢) كما أشرنا إليه . فهو ليس بموجود لا فى الخارج ولا فى الذهن .

(أحكام الممكن)

من أحكام الممكن لذاته أن لا يوجد إلا بسبب وأن لا ينعدم إلا بسبب . وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته : فنسبتهما إلى ذاته على السواء ، فإن ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد

---

(١) قال المؤلف : إن هذا من القضايا التى قياساتها معها لأن سلب اللازم إنما يكون بسلب الملزوم ، وهو كون الماهية هى ، أى فهو كسلب الانقسام إلى متساويين عن عدد الزوج ، وهو نفى لكونه زوجا فكأنك قلت : إنه زوج غير زوج .

(٢) يريد بهذا أن ما ذكر من ماهية المستحيل هو أمر اعتبارى أو فرضى يخترعه العقل لأجل الحكاية عنه كما تقدم فى الرسالة قريبا لا لأن له تحققا فى نفسه . فالحق أن المستحيل ليس له ماهية ثابتة فى الذهن ولا حقيقة فى الخارج ، أما الثانى فلأن ما فى الخارج هو الموجود بالفعل والمستحيل لا يوجد ، وأما الأول فلأن ما فى الذهن لا يكون إلا صورة لما فى الخارج منه ولذلك قال : « فهو ليس بموجود الخ » أى بل هو أمر فرضى أو اعتبارى .

المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة (١) .

ومن أحكامه : أنه إن وجد يكون حادثا لأنه قد ثبت أنه لا يوجد إلا بسبب ، فإما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده ، والأول باطل وإلا لزم تقدم المحتاج على ما إليه الحاجة ، وهو إبطال لمعنى الحاجة ، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها فيؤدى إلى خلاف المفروض ، والثانى كذلك وإلا لزم تساويهما فى رتبة الوجود (٢) فيكون الحكم على أحدهما بأنه أثر ، والثانى مؤثر ترجيحا بلا مرجح وهو مما لا يسوغه العقل ، على أن علية أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح وهو محال بالبداهة ، فتعين الثالث وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه ، فيكون مسبوقا بالعدم فى مرتبة وجود

(١) أى لأنه جمع بين النقيضين إذ معناه أنهما متساويان غير متساويين فى آن واحد ، فهو من القضايا التى قياساتها معها .

(٢) أى إن وجوده قبل سببه يؤدى إلى الجمع بين النقيضين وهو كونه أى الممكن محتاجا فى وجوده إلى السبب غير محتاج إليه ، وقوله : والثانى كذلك ظاهر . فإن وجود الشىء مع وجود سببه من غير سبق السبب على المسبب يقتضى أن ما فرض سببا لا يكون سببا وأن الممكن محتاج إلى السبب غير محتاج إليه وهو تناقض ظاهر ، وقوله : وإلا لزم تساويهما فى رتبة الوجود . مثاله : أن يوجد الأب والابن أى يولدا فى وقت واحد . ومن البديهى أن الشخصين اللذين يولدان فى وقت واحد لا يمكن أن يكون أحدهما أبا والآخر ابنا .

السبب فيكون حادثا . إذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم فكل ممكن حادث .

الممكن يحتاج فى عدمه إلى سبب وجودى لأن العدم سلب ، والسلب لا يحتاج إلى إيجاد بداهة ، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه أو لعدم ما كان سببا فى بقائه ، أما فى وجوده فيحتاج إلى سبب وجودى ضرورة ، لأن العدم لا يكون مصدراً للوجود فالموجود إن حدث فإنما يكون حدوثه بإيجاد ، وذلك كله بديهى .

كما يحتاج الممكن إلى السبب فى وجوده ابتداء يحتاج إليه فى البقاء لما بينا أن ذات الممكن لا تقتضى الوجود ولا يرجح لها الوجود عن العدم (١) إلا للسبب الخارجى الوجودى ، فذلك لازم من لوازم ماهية الإمكان لا يفارقها من حيث هى فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيها الوجود لذاته ، فيكون فى جميع أحواله محتاجا إلى مرجح الوجود عن العدم . لا فرق بين الابتداء والبقاء .

معنى السبب على ما ذكرنا : منشأ الإيجاد ومعطى الوجود . وهو الذى يعبر عنه بالموجد وبالعلة الموجدة وبالعلة الفاعلة وبالفاعل الحقيقى ونحو ذلك من العبارات التى تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها . وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعد الذى يهيء الممكن لقبول الإيجاد من موجده . وهو بهذا المعنى قـــد يحتاج إليه فى الابتداء

(١) هذا تعبير كلامى لبعضهم ، والترجيح يتعدى بـ « على » .

ويستغنى عنه فى البقاء . وقد تكون الحاجة إلى وجوده ثم عدمه . ومن هذا القبيل وجود البناء فإنه شرط فى وجود البيت وقد يموت البناء ويبقى بناؤه . وليس البناء واهب الوجود للبيت وإنما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار إرادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به

وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شىء وبين استفادته الوجود من شىء فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم كما فى توقف الخطوة الثانية على الأولى . فإن الأولى ليست واهبة الوجود للثانية وإلا وجب وجودها معها مع أن الثانية لا توجد إلا إذا انعدمت الأولى . وأما استفادة الوجود فتقتضى سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمداً من وجود الواهب لا يقوم إلا به فلا يستقل بنفسه دونه فى حال من الأحوال .

(الممكن موجود قطعاً)

نرى أشياء توجد بعد أن لم تكن وأخرى تنعدم بعد أن كانت كأشخاص النباتات والحيوانات . فهذه الكائنات إما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة . لا سبيل إلى الأول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود . ولا إلى الثانى لأن الواجب له الوجود من ذاته (١) وما بالذات لا يزول فلا يطرأ عليه العدم . ولا يسبقه كما سيجىء فى أحكام الواجب فهى ممكنة فالممكن موجود قطعا .

(١) قوله « له الوجود من ذاته » جملة هى خبر « أن » .

(وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب)

جملة الممكنات الموجودة ممكنة بداهة ، وكل ممكن محتاج إلى سبب يعطيه الوجود ، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها إلى موجد لها ، فإما أن يكون عينها وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه ، وإما أن يكون جزأها وهو محال لاستلزامه أن يكون الشيء سبباً لنفسه ولما سبقه إن لم يكن الأول ، ولنفسه فقط إن فرض أول وبطلانه ظاهر ، فوجب أن يكون السبب وراء جملة الممكنات ، والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب إذ ليس وراء الممكن إلا المستحيل . والواجب والمستحيل لا يوجد فيبقى الواجب ، فثبت أن للممكنات الموجودة موجداً واجب الوجود (١) .

وأيضا الممكنات الموجودة سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود ، فذلك الوجود إما أن يكون مصدره ذات الإمكان وماهيات الممكنات وهو باطل ، لما سبق فى أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود ، فتعين أن يكون مصدره سواها وهو الواجب بالضرورة .

(١) هذه هى نتيجة تلك المقدمات كلها . وملخصها . أن المستحيل لا يوجد والممكن موجود بالفعل ويوجد دائماً ووجوده يدل على وجود الواجب قطعاً ، لأنه هو الذى يعطيه الوجود إذ لا وجود له من ذاته .

أحكام الواجب

القدم والبقاء ونفي التركيب

من أحكام الواجب : أن يكون قديماً أزليا لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثا ، والحادث ماسبق وجوده بالعدم فيكون وجوده مسبوقا بعدم ، وكل ماسبق بالعدم يحتاج إلى علة تعطيه الوجود وإلالزم رجحان المرجوح بلا سبب وهو محال ، فلو لم يكن الواجب قديماً لكان محتاجا في وجوده إلى موجد غيره وقد سبق أن الواجب ماكان وجوده لذاته فلا يكون مافرض واجبا واجبا وهو تناقض محال . ومن أحكامه أن لايطرأ عليه عدم وإلالزم سلب ماهو الذات عنها وهو يعود إلى سلب الشيء عن نفسه وهو محال بالبداهة

من أحكامه أن لا يكون مركبا إذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من أجزائه على وجود جملته التي هي ذاته وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة فيكون وجود جملته محتاجا إلى وجود غيره . وقد سبق أن الواجب ماكان وجوده لذاته . ولأنه لو تركب لكان الحكم له بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه ، وقد قلنا إنه لذاته من حيث هي ذاته ولأنه لامرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هي الواجبة دونه

نفى التركيب فى الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية(١) أو خارجية فلا يمكن للعقل أن يحاكى ذات الواجب بمركب فإن الأجزاء العقلية لابد لها من منشأ انتزاع فى الخارج ، فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة فى الخارج وإلا كان مافرض حقيقة عقلية اعتباراً كاذب الصدق(٢) لا حقيقة .

كما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة(٣) فى أحد الامتدادات الثلاث : أى لا يكون له امتداد ، لأنه لو قبل القسمة لعاد بها إلى غير وجوده الأول وصار إلى وجودات متعددة وهى وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق

(١) قوله « حقيقة عقلية » مبنى على القول بها على سبيل التوضيح وإلا فما يعرف عند علماء المعقول بالحقيقة العقلية لاثبوت له وقد نفاها المؤلف فى الدرس وأثبت أنه ليس وراء الحقائق الخارجية الممكنة إلا إدراكها أى الصور التى ينتزعها الذهن من الوجود الخارجى ، وبين فى درس المنطق بطلان مذهب أفلاطون فى الوجود العقلى ومذهب أرسطو فى كون الصور الذهنية هى حقائق هذه الموجودات الخارجية .

(٢) قوله « اعتبارا الخ » خبر كان أى تصورا مخترعا لا يصدق على شىء فى الواقع . والعبارة عرفية منطقية ، لا عربية فصيحة .

(٣) سئل المؤلف فى الدرس هل يصدق ذلك بالجوهر الفرد بالمعنى الذى يقولونه وهو أنه لا يقبل القسمة فعلا ولا عقلا ولا وهما ؟ فقال : إن الجوهر الفرد بهذا المعنى لا حقيقة له ونحن نحمل كلام من يقول الجوهر الفرد ، على الجزء الذى لا ينقسم فعلا لشدة صغره وهذا ليس بمراد هنا قطعا اهـ والموضوع كله من نظريات الفلسفة القديمة الباطلة .

الحياة

معنى الوجود وإن كان بديهيا عند العقل ولكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار ، وكال الوجود وقوته بكال هذا المعنى وقوته بالبداهة .

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ماهو كال لتلك المرتبة فى المعنى السابق ذكره ، وإلا كان الوجود لمرتبة سواها وعرض لها .

مايتجلى للنفس من مثل الوجود لاينحصر . وأكمل مثال فى أى مراتبه ماكان مقرونا بالنظام والسكون على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش ، فإن كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجوداً مستمراً وإن فى النوع ، دل على كال المعنى الوجودى فى صاحب المثال .

فإن تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدراً لكل نظام كان ذلك عنوانا على أنها أكمل المراتب وأعلاها . وأرفعها وأقواها

وجود الواجب هو مصدر كل وجود ممكن كما قلنا وظهر بالبرهان القاطع فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها . فهو يستتبع من الصفات الوجودية مايلائم تلك المرتبة العليا ، وكل ماتصوره العقل كالا فى الوجود من حيث مايحيط به من معنى الثبات والاستقرار

والظهور وأمكن أن يكون له وجب أن يثبت له(١) وكونه مصدراً للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا فيجب أن يكون ذلك ثابتاً له فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التي تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له .

فمما يجب أن يكون له صفة الحياة وهي صفة تستتبع العلم والإرادة وذلك أن الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة فإن الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام وناموس الحكمة (٢) وهي في أي مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار في تلك المرتبة ، فهي كمال وجودي ويمكن أن يتصف بها الواجب ، وكل كمال وجودي يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له فواجب الوجود حي وإن باينت حياته حياة الممكنات فإن ما هو كمال للوجود إنما هو مبدأ العلم والإرادة ولو لم تثبت له هذه الصفة(٣) لكان من الممكنات ما هو أكمل منه وجودا ، وقد تقدم أنه أعلى الموجودات وأكملها فيه .

والواجب هو واهب الوجود وما يتبعه فكيف لو كان فاقداً للحياة يعطيها ؟ فالحياة له كما أنه مصدرها .

(١) لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة بديعة في إثبات اتصافه تعالى بكل كمال وهي في الجزء الخامس من مجموعة رسائله المطبوعة في مطبعة المنار

(٢) دليل فيه إضمار ، تقديره . وكل ما كان مصدر النظام الخ فهو كمال وجودي ، فالحياة كمال وجودي .

(٣) دليل ثان على ثبوت الحياة لواجب الوجود ، وقوله بعده « والواجب هو واهب الوجود » دليل ثالث .

العـــلم

ومما يجب له صفة العلم ، ويراد به ، مابه انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصفة أى مصدر ذلك الانكشاف منه (١) لأن العلم من الصفات الوجودية التى تعد كمالا فى الوجود . ويمكن (٢) أن تكون للواجب . وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له . فواجب الوجود عالم.

ثم البداهة قاضية بأن العلم كمال فى الموجودات الممكنة ومن الممكنات من هو عالم ، فلو لم يكن الواجب عالما لكان فى الموجودات الممكنة ماهو أكمل من الموجود الواجب وهو محال كما قدمنا . ثم هو واهب العلم فى عالم الإمكان ولا يعقل أن مصدر العلم يفقده (٣) .

علم الواجب من لوازم وجوده كما ترى فيعلو على العلوم علو وجوده عن الوجودات (٤) فلا يتصور فى العلوم ماهو أعلى منه ، فيكون محيطا

---

(١) بيان لمعنى العلم فى اللغة وسنذكر معنى علمه تعالى فى حاشية صفحة ٤٦
(٢) كتب المصنف فى حاشية نسخة الدرس هنا . أى بالإمكان العام.
(٣) وكتب هنا : العلم كمال والناقص الفاقد الكمال لا يمكنه أن يهب كمالا بالضرورة ، وأما الصفات التى لا تعد كمالا ولا نقصا وهى من خواص الماهيات كالحرارة فليست من هذا القبيل « فيمكن » هبتها مع فقدها اهـ .
(٤) هكذا اختلفت تعدية العلو بـ « على » وعن والعبارة فى معنى قول السلف بعلوه تعالى فوق جملة خلقة بائنا منهم « والله من ورائهم محيط ».

بكل ما يمكن علمه . وإلا تصور العقل علماً أشمل ، وهو إنما يكون لوجود أكمل ، وهو محال .

ماهو لازم لوجود الواجب يغنى بغناه(١) ويبقى ببقائه ، وعلم الواجب من لوازم وجوده ، فلا يفتقر إلى شيء ماوراء ذاته : فهو أزلى أبدى غنى عن الآلات وجولات الفكر وأفاعيل النظر ، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة .

مايوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم وإلا لم يكن علماً .

من أدلة ثبوت العلم للواجب مانشاهده فى نظام الممكنات من الإحكام والإتقان ، ووضع كل شيء فى موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج إليه فى وجوده وبقائه ، وذلك ظاهر لجلى النظر بما يشاهد فى الأعيان كبيرها وصغيرها علويها وسفليها ، فهذه الروابط بين الكواكب والنسب الثابتة بينها ، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها ، وإلزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عمله أو العالم بأسره ، وغير ذلك مما فصل فى علوم الهيئة الفلكية ـ كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره .

---

(١) غنى بالشيء ، اكتفى به واستغنى به عن غيره وفى الطبعة الخامسة بفنائه بالفاء وهو غلط بالطبع . وباطل بالعقل والشرع

اعتبر بما تراه فى جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها قواها وإيتائها ماتحتاج إليه فى تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ووضع ذلك فى مواضعه من أبدانها ، وإيداع غير الحساس منها كالنبات قوة الميل إلى تناول مايناسبه من الغذاء دون مالا يلائمه . فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ فى أرض واحدة ثم تسقى بماء واحد وتنمو بعناية واحدة ، ولكن تلك تمتص من المواد مايغذى المر الزعاق ، وهذه تتناول مايغذو حلو المذاق ، وإرشاد الحساس منها إلى استعمال مامنح من تلك الأدوات والأعضاء وسوق كل قوة من قواه إلى ماقدرت له . فهو الذى يعلم حالة الجنين وهو نطفة أو علقة ويعلم حاجته - متى تكامل خلقه وأنشأه نشأة الحى المستقل فى عمله - إلى الأيدى والأرجل والأعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ليستعمل ذلك فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادى عليه ، وحاجته إلى المعدة والكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التى لاغنى عنها فى النمو والبقاء إلى الأجل المحدود للشخص أو للنوع .

هو الذى يعلم حاله الجروة من الكلاب مثلا ، وأنها متى كبرت تلد أجراء متعددة فيمنحها أطباء(١) كثيرة وغير ذلك مما لايستطاع

(١) الأجراء ، جمع جرو ، والأطباء جمع طبى بالكسر ، وهى حلمات الضرع

إحصاؤه . وقد فصل الكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التاريخ الطبيعى وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه . على أن الباحثين فى كل ذلك - بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم ، وما كشفوا من الأسرار - لم يزالوا فى أول البحث .

هذا الصنيع الذى إنما تتفاضل العقول فى فهم أسراره والوقوف على دقائق حكمه ، ألا يدل على أن مصدره هو العالم بكل شىء ؟ الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ؟ هل يمكن لمجرد الاتفاق المسمى بالصدفة(١) أن يكون ينبوعا لهذا النظام ؟ وواضعاً لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الأكوان عظيمها وحقيرها ؛ كلا ، بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم .

---

(١) « الصدفة » كلمة استعملها المولدون ولم تعرف عن العرب وقد استبدل بها المؤلف فى تصحيح خطبة شرحه لنهج البلاغة لفظ المصادفة وتركها هنا سهواً أو مراده المسمى فى عرف الناس بالصدفة

الإرادة

مما يجب لواجب الوجود الإرادة ، وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة (١) .

بعد ماثبت أن واهب وجود الممكنات هو الواجب وأنه عالم ، وأن ما يوجد من الممكن لابد أن يكون على وفق علمه ثبت بالضرورة أنه مريد لأنه إنما يفعل على حسب علمه ، ثم إن كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة ، وله وقت ومكان محدودان ، وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ، ولا معنى للإرادة إلا هذا .

أما ما يعرف من معنى الإرادة وهو مابه يصح للفاعل أن ينفذ ما قصد وأن يرجع عنه فذلك محال فى جانب الواجب ، فإن هذا المعنى من الهموم الكونية والعزائم القابلة للفسخ ، وهى من توابع النقص فى العلم ، فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك .

(١) يعنى الوجوه المتقابلة التى لاتجتمع كما يعلم مما يأتى

القدرة

ومما يجب له القدرة وهى صفة بها الإيجاد والإعدام . ولما كان الواجب هو مبدع الكائنات على مقتضى علمه وإرادته ، فلا ريب يكون قادراً بالبداهة ، لأن فعل العالم المريد فيما علم وأراد ، إنما يكون بسلطة له على الفعل ، ولا معنى للقدرة إلا هذا السلطان .

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار ، إذ لامعنى له إلا إصدار الأثر بالقدرة على مقتضى العلم وعلى حكم الإرادة فهو الفاعل المختار ، ليس من أفعاله ولا من تصرفه فى خلقه مايصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا إرادة . وليس من مصالح الكون مايلزمه مراعاته لزوم تكليف بحيث لولم يراعه لتوجه عليه النقد فيأتيه تنزها عن اللائمة . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى إنما تقررت له بحكم أنه أثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها . فالكمال فى الكون إنما هو تابع لكمال المكون ، وإتقان الإبداع

إنما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع ، وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والإرادة المطلقة فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع (٢٣ : ١١٥ أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لاترجعون ؟) وهذا هو معنى قولهم : إن أفعاله لاتعلل بالأغراض ، ولكنها تنزه عن العبث ، ويستحيل أن تخلو من الحكم وإن خفى شىء من حكمتها عن الأنظار(١) .

الوحدة

ومما يجب له صفة الوحدة ذاتاً ووصفاووجوداً وفعلا ، أماالوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقدم بنفى التركيب فى ذاته خارجا وعقلا : وأما الوحدة فى الصفة ، أى أنه لايساويه فى صفاته الثابتة له موجود فلما بينا من أن الصفة تابعة لمرتبة الوجود وليس فى الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى مرتبة الوجود ، فلا يساويه فيما يتبع الوجود من الصفات . وأما الوحدة فى الوجود وفى الفعل ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود وما يتبعه من إيجاد الممكنات فهى ثابتة

(١) قد تخفى حكمة الشىء عن البشر زمنا طويلا ثم تظهر كما ثبت كثيراً وصفة الاختيار تبطل قول القائلين بأن العالم كالآلة الميكانيكية

لأنه لو تعدد واجب الوجود لكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة وإلا لم يتحصل معنى التعدد . وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة . لأن الصفة إنما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ماثبتت له بالبداهة . فيختلف العلم والإرادة باختلاف الذوات الواجبة ، إذ يكون لكل واحدة منها علم وإرادة يباينان علم الأخرى وإرادتها ، ويكون لكل واحدة علم وإرادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها .

هذا التخالف ذاتى لأن علم الواجب وإرادته لازمان لذاته من ذاته ، لا لأمر خارج ، فلا سبيل إلى التغير والتبدل فيهما كما سبق ، وقد قدمنا أن فعل الواجب إنما يصدر عنه على حسب علمه وحكم إرادته فيكون فعل كل صادراً على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية . فلو تعددت الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخالف علومهم وإراداتهم وهو خلاف يستحيل معه الوفاق ، وكل واحد يقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الإيجاد فى عامة الممكنات . فكل له التصرف فى كل منها على حسب علمه وإرادته ، ولا مرجح لنفاذ إحدى القدرتين دون الأخرى فتتضارب أفعالهم حسب التضارب فى علومهم وإراداتهم فيفسد نظام الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات ، لأن وجود كل ممكن لابد أن يتعلق به

الإيجاد على حسب العلوم والإرادات المختلفة ، فيلزم أن يكون للشىء الواحد وجودات متعددة وهو محال — فلو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (١) لكن الفساد ممتنع بالبداهة . فهو جل شأنه واحد فى ذاته وصفاته ، لاشريك له فى وجوده ولا فى أفعاله .

(١) تقرير لكون قوله تعالى (٢١ ، ٢٢ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) برهانا قطعيا لا دليلا إقناعيا كما زعم من لم يفهم الآية والمراد بقوله « فيهما » السموات والأرض المذكورتان فى آية سابقة قريبة

وهذا الوجه من التوحيد قد ضل فيه بعض البشر فزعموا أن للخير والنور إلها وللشر والظلمة إلها وقال آخرون بعدة أرباب تعبد وما قبله بحث فلسفى فى الوحدة قلما يحتاج إليه أحد فى هذا العصر ولا سيما نفى التركيب فى الذات إلا إذا عد منه التثليث عند النصارى وبعض الهندوس وذلك غير ظاهر . وسكت هنا عن التوحيد الأعظم الذى تدل عليه كلمة لا إله إلا الله وهو عبادة الله وحده وعدم عبادة غيره ، لأن هذا بحث كلامى فلسفى ولكنه تكلم عليه فى مواضع أخرى كالكلام فى أفعال العباد وفى الكلام عما جاء به الإسلام بعد بحث الرسالة العامة

الصفات السمعية

التى يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التى يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هى ما أرشد إليه البرهان وجاءت الشريعة الإسلامية وما تقدمها من الشرائع المقدسة لتأييده والدعوة إليه بلسان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ولسان من سبقه من الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ولا يحيله العقل إذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ، ولكن لايهتدى إليه النظر وحده (١) ، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما قرره الشرع وتصديقا لما أخبر به .

فمن تلك الصفات : صفة الكلام . فقد ورد أن الله كلم بعض أنبيائه ونطق القرآن بأنه كلام الله . فمصدر الكلام المسموع عنه

(١) فيه أن النظر العقلى قد اهتدى إليه وبناه على القاعدة التى أشار إليها فى الكلام على صفة الحياة ، وهى أن كل كمال وجودى محض يجب أن يتصف به واجب الوجود ، وفصله ابن تيمية برسالة خاصة

سبحانه لابد أن يكون شأناً من شئونه قديماً بقدمه (١) .

(١) إن الله تعالى جعل للناس طرقا عامة كالحواس والعقل يكسبون بها العلم كسبا فينالون منه بحسب استعدادهم واجتهادهم واختص من شاء من المصطفين بعلم ينزله على قلوبهم ويفيضه على أرواحهم بلا كسب منهم فالعلم هو القوة أو الصفة التي تنكشف بها المعلومات للنفس بكسب أو بغير كسب وفيها قوة أخرى تتصرف بها في المعلومات وتصورها بصور قابلة لأعلام قابل العلم بها ، فبها يتمكن الإنسان من إفادة غيره ماشاء من علمه وهي صفة الكلام ، فما كان منه في النفس يسمى كلاما نفسيا ويعبر عنه بالقول والكلام والحديث فيقول قلت في نفسي كذا وحدثتني نفسي وقال عمر يوم السقيفة : زورت في نفسي كلاما - وما تحصل به الإفادة والإعلام بالفعل من قول أو كتابة أو غيرهما ويوجه إلى من يراد إعلامه به فيعلمه يسمى كلاماً لفظياً ، وقد استعير لفظ العلم الذي يستعمله البشر في أنفسهم للعلم الإلهي المحيط بكل شيء ، واستعير لفظ الكلام للشأن الإلهي الذي به يوحي الله إلى ملائكته ورسله ماشاء من العلم ويكلم من شاء وحيا من وراء حجاب ، فقيل . إن لله كلاماً هو صفة له أي شأن من شئونه هو مصدر الوحي إفادة العلم للأنبياء والملائكة ، وسمي مايوحيه إليهم كلاماً أيضا . وليس في اللغة لفظ يعبر به عن ذلك يقوم مقام هذا اللفظ المستعمل في كلام الناس مع العلم بتنزيه كلام الله النفسي عن مشابهة كلام الناس كعلمه وعلمهم وقدرته وقدرتهم . فالكلام النفسي صورة للعلم الذاتي في النفس كما أن العلم صورة المعلوم فيها ولذلك كان كلامه تعالى لا نهاية له كعلمه ، فكلام الله صفة ذاتية له تتعلق بكل ما في علمه وبكشف ماشاء من علمه لمن شاء من خلقه وهو التكليم كما أن علمه صفة ذاتية له تتعلق بكل شيء تعلق انكشاف وإدراك من غير سبق خفاء ، فالكلام كمال وجودي محض لو لم يكن الخالق =

ومما ثبت له بالنقل صفة البصر : وهي مابه تنكشف المبصرات

= متصفا به لكان ناقصاً (سبحانه) بفقده في الأزل له ، ولكان غيره من الموجودات كالإنسان أكمل منه على ماسبق بيانه في صفة الحياة تعالى الله عن ذلك . فالكلام هو الوصف الفاصل بين الإنسان والحيوان وقد احتج الله على بطلان ألوهية عجل بني إسرائيل بقوله (أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ، ولا يملك لهم ضراً ولا نفعاً) وإنما الإله الحق هو الذي يملك هدايتهم بكلامه وضرهم ونفعهم بقدرته ، ولو خلق الله تعالى في نفس الملك أو النبي علما بما أراد إعلامه به لم يكن صادرا عن كلامه النفسي ومرآة له لما صح أن يسمى هذا العلم كلاما لله تعالى ، كما أن سائر علوم الخلق الضرورية التي لا كسب لهم فيها من خلقه تعالى ولا تسمى كلاما له . وكذلك الكسبية بالأولى .

هذا وإن لإيحاء كلامه تعالى إلى الملائكة صورة روحية غير الصورة التي يوحيها الملك للرسول من البشر ، والرسول يبلغها للناس بصورة أخرى هي كلامهم اللفظي ، والمعنى للكل الذي هو العلم الذي أراد الله تعالى إظهارهم عليه واحد لا يتغير باختلاف صوره ولا يصح أن يعزى إلى غيره فالشاعر الذي علم أن كل شيء ماخلا الله باطل (لأنه لاوجود له ولا بقاء بذاته لذاته) وأن كل نعيم في الدنيا زائل ، وتمثل له هذا المعنى بقوله .

ألا كل شيء ماخلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

قد نطق بهذا البيت بلفظه ، بعد أن تمثل في نفسه ، ثم تناقله عنه الناس بألسنتهم وخطوطهم قرناً بعد قرن ، وكلهم يعزونه إليه ، وأنه من كلامه ، وأن النطق به وكتابته الآن لا ينفي أنه كلام له قيل منذ بضعة عشر قرناً — فهذا أوضح مثال لكون القرآن كلام الله الذي أوحاه إلى محمد رسوله ﷺ صادرا عن كلامه النفسي ، وأن حدوث الوحي به قبل الهجرة بثلاث عشرة سنة وتلاوته بالألسنة وكتابته وطبعه =

وصفة السمع ، وهي ما به تنكشف المسموعات ، فهو السميع البصير .

= في المصاحف قرنا بعد قرن لا ينافي كونه هو كلامه وأنه قديم بقدمه ، على أن السلف لم يقولوا إنه قديم لأن نص الشارع لم يرد به وقد أغلظوا النكير على من قالوا إنه مخلوق وحادث بشبهة حدوث إيحائه وتنزيله وتلاوته ، لأن الحامل لهم عليه إنكار صفات الله تعالى جملة وتفصيلا بشبهة استلزام إثباتها لتعدد القدماء ، وهي نظرية فلسفية مخترعة باطلة وضعوها وحكموها في صفات الله تعالى وكلامه المنزل غلوا في التنزيه انتهى بهم إلى جعله عز وجل ماهية خيالية سلبية فاقدة لكل صفات الوجود . وكذا نظرية امتناع قيام الحادث بالقديم ، وإنما التنزيه الصحيح أنه تعالى موجود متصف بجميع صفات الكمال والوجودية ، ومنها الكلام والتكلم ، بغير تعطيل ولا تمثيل . وقد اهتدى البشر إلى بيان ما في أنفسهم من الكلام لمن يريدون إعلامه بمعناه بطريقة سريعة خفية يكلم بها المرء غيره وهو يبعد عنه ألوفا من الأميال بلا صوت وذلك ما يعرف بالتلغراف السلكي واللاسلكي ، وما يؤدى به يسمى كلاما أيضا ، فهذا أظهر مثال يضرب للوحي ، وتنزيه كلام الله عن مشابهة كلام الخلق ، ثم اهتدوا إلى اختراع آلة أخرى تنقل الأصوات والكلام من قطر إلى قطر وإن بعدت المسافات سموها الراديو وسميناها المذياع

وقد حذفنا من هذا الموضع نحو صفحة من الرسالة في مسألة الخلاف في خلق القرآن عملا بأمر المؤلف إذ كتب بخطه في طرة نسخته ما نصه « في الطبعة الثانية يحذف القول في خلق القرآن » وبين لنا السبب في ذلك في الدرس فقال إنه التزم في الرسالة مذهب السلف وهذه المسألة من البدع التي ليست من مذهبهم وكان الذي ذكره بذلك الشيخ محمد محمود الشنقيطي « رح » فأذعن وذكر ذلك في الدرس وقد نوهنا بذلك في مقالة المنار عنوانها « سجايا العلماء » وما شرحناه تشوير للحقيقة المثبتة لمذهب السلف الداحضة لبدعة المعتزلة بما يقبله العقل والوجدان السليمان ولله الحمد

لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة مما هو معروف لنا (١) .

كلام فى الصفات إجمالا

أبتدىء الكلام فيما أقصد بذكر حديث إن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه وهو قوله صلى الله عليه وسلم « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » (٢) .

(١) وكذلك علمه تعالى ليس بآلة الدماغ ولا بوجدان القلب

(٢) الحديث ورد بألفاظ يتفق معناها قال الحافظ العراقى فى تخريج أحاديث الإحياء : روى أبو نعيم فى الحلية المرفوع منه بإسناد ضعيف ، ورواه الأصبهانى فى الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ، ورواه الطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر . قلت : فيه الوازع بن نافع متروك اه زاد الزبيدى فى الشرح . قلت : حديث ابن عمر لفظه « تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله » هكذا رواه ابن أبى الدنيا فى كتاب التفكر وأبو الشيخ فى العظمة والطبرانى فى الأوسط وابن عدى وابن مردويه والبيهقى وضعفه والأصبهانى وأبو نصر فى الإبانة وقال غريب ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق فإنكم لا تقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعى من حديث أبى هريرة « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله » الخ وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح . كما قال الحافظ السخاوى فى « المقاصد الحسنة » اه

إذا قدرنا عقل البشر قدره وجدنا غاية ما ينتهى إلى كماله إنما هو الوصول إلى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الإدراك الإنسانى حساً كان أو وجداناً أو تعقلا . ثم التوصل بذلك إلى معرفة مناشئها ، وتحصيل كليات لأنواعها ، والإحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها . وأما الوصول إلى كنه (١) حقيقة ما فمما لا تبلغه قوته . لأن اكتناه المركبات(٢) إنما هو باكتناه ما تركبت منه ، وذلك ينتهى إلى البسيط الصرف وهو لا سبيل إلى اكتناهه بالضرورة وغاية ما يمكن عرفانه منه ، هو عوارضه وآثاره .

خذ أظهر الأشياء وأجلاها كالضوء ، قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة فصلوها فى علم خاص به ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو

---

(١) كنه الشيء : جوهره وحقيقته وغايته ومعرفة الكنه هى معرفة الإحاطة التى ليس وراءها غاية يبحث عنها

(٢) الاكتناه معرفة الكنه ، مثال ذلك اكتناه الماء هو معرفة ما تركب منه . وهو عنصران بسيطان بحسب ما وصل إليه علم من اكتشف هذا التركيب ، يسمونها الأوكسجين والأدروجين ، فتقول الماء سائل شفاف مركب من الأوكسجين والأدروجين على نسبة معينة . فيشبه هذا أو يقرب أن يكون اكتناها لهذا المركب لمن اكتنه جزأيه ولكن اكتناه البسيط كالأدروجين مما لا سبيل إليه كما قال المصنف

ولا أن يكتنه معنى الإضاءة نفسه ، وإنما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان ، وعلى هذا القياس .

ثم إن الله لم يجعل للإنسان حاجة تدعو إلى اكتناه شيء من الكائنات ، وإنما حاجته إلى معرفة العوارض والخواص ، ولذة عقله إن كان سليما إنما هي تحقيق نسبة تلك الخواص إلى ما اختصت به وإدراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب ، فالاشتغال بالاكتناه إضاعة للوقت وصرف للقوة إلى غير ما سيقت إليه .

اشتغل الإنسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء إليه وهي نفسه : أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر ؟ هل هي قبل الجسم أو بعده ؟ هل هي فيه أو مجردة عنه ؟ كل هذه الصفات لم يصل العقل إلى إثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وإنما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حي له شعور وإرادة ، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع إلى تلك العوارض التي وصل إليها ببديهته ، أما كنه شيء من ذلك . وبل وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ولا يجد سبيلا للعلم به .

هذا حال العقل الإنساني مع مايساويه في الوجود أو ينحط عنه . بل كذلك شأنه فيما يظن من الأفعال أنه صادر عنه كالفكر .

وارتباطه بالحركة والنطق ، فما يكون من أمره بالنسبة إلى ذلك الوجود الأعلى ؟ ماذا يكون دهشه بل انقطاعه إذا وجه نظره إلى ما لا يتناهى من الوجود الأزلى الأبدى ؟ .

النظر فى الخلق يهدى بالضرورة إلى المنافع الدنيوية ويضىء للنفس طريقها إلى معرفة من هذه آثاره ، وعليها تجلت أنواره ، وإلى اتصافه بما لولاه لما صدر عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظام ، وتخالف الأنظار فى الكون إنما هو من تصارع الحق والباطل ولا بد أن يظفر الحق ويعلو على الباطل بتعاون الأفكار أو صولة القوى منها على الضعيف .

وأما الفكر فى ذات الخالق : فهو طلب للاكتناه من جهة وهو ممتنع على العقل البشرى لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب فى ذاته ، وتطاول إلا ما لاتبلغه القوة البشرية من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة : عبث لأنه سعى إلى مالا يدرك ، ومهلكة لأنه يؤدى إلى الخبط فى الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لايجوز تحديده ، وحصر ما لايصح حصره .

لا ريب أن هذا الحديث وما أتينا عليه من البيان كما يأتى فى الذات من حيث هى يأتى فيها مع صفاتها . فالنهى واستحالة الوصول إلى الاكتناه شاملان لها ، فيكفينا من العلم بها أن نعلم أنه متصف بها ،

وأما ماوراء ذلك فهو مما يستأثر هو بعلمه ولا يمكن لعقولنا أن تصل إليه ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز وما سبقه من الكتب إلا بتوجيه النظر إلى المصنوع لينفذ منه إلى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية وأما كيفية الاتصاف فليس من شأننا أن نبحث فيها .

فالذى يوجبه علينا الإيمان هو أن نعلم أنه موجود لا يشبه الكائنات ، أزلى أبدى حى عالم مريد قادر . متفرد فى وجوب وجوده ، وفى كمال صفاته ، وفى صنع خلقه ، وأنه متكلم سميع بصير وما يتبع ذلك من الصفات التى جاء الشرع بإطلاق أسمائها عليه .

أما كون الصفات زائدة على الذات ، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية . وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشئون التى اختلف فيها النظار ، وتفرقت فيها المذاهب ، فمما لا يجوز الخوض فيه ، إذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل إليه ، والاستدلال على شيء منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل ، وتغرير بالشرع لأن استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى — وإنما تلك مذاهب فلسفة إن لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق إلى مقنع ، فما علينا إلا الوقوف عند ماتبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به ، وبما جاء به رسله ممن تقدمنا من الخائضين .

أفعال الله جل شأنه

أفعال الله صادرة عن علمه وإرادته كما سبق تقريره ، وكل ماصدر عن علم وإرادة فهو عن الاختيار ، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته ، فلاشيء من أفعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الأفعال من خلق ورزق وإعطاء ومنع وتعذيب وتنعيم مما يثبت له تعالى بالإمكان الخاص (١) ، فلا يطوفن بعقل عاقل بعد تسليم أنه فاعل عن علم وإرادة أن يتوهم أن شيئا من أفعاله واجب عنه لذاته كما هو الشأن فى لوازم الماهيات أو فى اتصاف الواجب بصفاته مثلا — فإن ذلك هو التناقض البديهى الاستحالة كما سبقت الإشارة إليه .

بقيت علينا جولة نظر فى تلك المقالات الحمق التى اختبط فيها القوم اختباط إخوة تفرقت بهم الطرق فى السير إلى مقصد واحد ثم التقوا فى غسق الليل فصاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر ، فظن كل أن الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده ، فاستحر بينهم القتال

---

(١) « الإمكان الخاص » عبارة عن كون كل من إيجاب ذلك وسلبه غير ضرورى أى لا يمتنع فعله عقلا ولا يتحتم .

ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد إلى من بقى وهم الناجون ، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعاً على بلوغ ما أملو ، ولوافتهم الغاية إخوانا بنور الحق مهتدين .

نريد تلك المقالات المضطربة فى أنه يجب على الله رعاية المصلحة فى أفعاله وتحقيق وعيده ، فيمن تعدى حدوده من عبيده ، وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأغراض ، فقد بالغ قوم فى الإيجاب حتى ظن الناظر فى مزاعمهم أنهم عدوه واحداً من المكلفين يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية مالزمه من الواجبات . تعالى عن ذلك علواً كبيراً . وغلا آخرون فى نفى التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن فى مقالاتهم أنهم لا يرضونه إلا قلبا يبرم اليوم ما نقضه بالأمس ، ويفعل غداً ما أخبر بنقيضه اليوم أو غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) وهو أحكم الحاكمين . وأصدق القائلين . جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله .

اتفق الجميع على أن أفعاله تعالى لا تخلو من حكمة ، وصرح الغلاة والمقصرون جميعا بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله . والكذب

فى أقواله ، ثم بعد هذا أخذوا يتنابذون بالألفاظ ، ويتمارون فى الأوضاع ولا يدرى إلى أى غاية يقصدون ، فلنأخذ ما اتفقوا عليه ولنرد إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه .

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاما أو يدفع فساداً خاصا كان أو عاما لو كشف للعقل من أى وجه لعقله وحكم بأن العمل لم يكن عبثا ولعبا ، ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع إلى هذا حاكمناه إلى أوضاع اللغة وبداهة العقل - لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ، ولا يتمثل عند العقل بمثالها إلا إذا كان ما يتبع العمل مراداً لفاعله بالفعل ، وإلا لعد النائم حكيما فيما لو صدرت منه حركة فى نومه قتلت عقربا كادت تلسع طفلا ، أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط فيها ، بل لوسم بالحكمة كثير من العجماوات إذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة ، والبداهة تأباه .

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء « أن أفعال العاقل تصان عن العبث » ولا يريدون من العاقل إلا العالم بما يصدر عنه بإرادته ، ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر إلا لأمر يترتب عليها يكون غاية لها ، وإن كان هذا فى العاقل الحادث فما ظنك بموجد كل عقل ، ومنتهى الكمال فى العلم والحكم ؟ هذه كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد .

صنع الله الذى أتقن كل شىء (١) وأحسن خلقه (٢) مشحون بضروب الحكم . ففيه ماقامت به السموات والأرض ومابينهما وحفظ به نظام الكون بأسره ، وما صانه عن الفساد الذى يفضى به إلى العدم ، وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته ، خصوصا ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ، ولولا هذه البدائع من الحكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه .

فهذه الحكم التى نعرفها الآن بوضع كل شىء فى موضعه وإيتاء كل محتاج ماله إليه الحاجة ، إما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا (٣) لا يمكن القول بالثانى ، وإلا لكان قولا بقصور العلم إن لم تكن معلومة ، أو بالغفلة إن لم تكن مرادة ، وقد سبق تحقيق أن علمه وسع كل شىء واستحالة غيبة أثر من آثاره عن إرادته ، فهو يريد الفعل ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ، ولا معنى لهذا إلا إرادته للحكمة من حيث هى تابعة للفعل ، ومن المحال أن تكون الحكمة غير مرادة بالفعل مع العلم بارتباطها به ، فيجب الاعتقاد بأن أفعاله يستحيل أن تكون خالية من الحكمة ، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير

---

(١) مقتبس من سورة النمل ٢٧ : ٨٨
(٢) من « الم » السجدة ٣٢ : ٧
(٣) الظاهر التعبير بـ « أولا »

مرادة ، إذ لو صح توهم أن مايترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة كما سبق .

فوجوب الحكمة فى أفعاله تابع لوجوب الكمال فى علمه وإرادته وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين ، وهكذا يقال فى وجوب تحقق ما أوعد ووعد به ، فإنه تابع لكمال علمه وإرادته وصدقه وهو أصدق القائلين (١) وما جاء فى الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب إرجاعه إلى بقية الآيات وسائر الآثار حتى ينطبق الجميع إلى ماهدت إليه البديهيات السابق إيرادها وعلى مايليق بكمال الله وبالغ حكمته وجليل عظمته ، والأصل الذى يرجع إليه كل وارد فى هذا الباب قوله تعالى (٢١ : ١٦ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعبين (١٧) لو أردنا أن نتخذ لهوا لاتخذناه من لدنا إن كنا فاعلين (١٨) بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق ، ولكم الويل مما تصفون) .

وقوله . « لاتخذناه من لدنا » أى لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق لا يشوبه نقص وهو محال . و « إن » فى قوله

(١) كتب المصنف فى طرة نسخته هنا مانصه ، ولا يقال ، إن غاية حكمته الوجوب عليه ، لأنه هو جاعل الغاية وذو الغاية وكون الغاية غاية لأنه المبدع الذى لا يتأثر بشىء ولا يحكم عليه أمر ما أراده

« إن كنا فاعلين » نافية وهو نتيجة القياس السابق (١) .

بقى أن الناظرين فى هذه الحقائق ينقسمون إلى قسمين : فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته - فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها ، ولا يبالى جوز الشرع إطلاقها فى جانب الله أم لم يجوز، فيسمى الحكمة غاية وغرضا وعلة غائية ورعاية للمصلحة ، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن إطلاق اسم متى صح عنده معناه . وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له غير مبال بما يوهمه اللفظ .

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة أن ذلك دين يتعبد به واعتقاد بشئون لإله عظيم، يعبد بالتحميد والتعظيم، ويجب الاحتياط فى تنزيهه ولو بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصا فى جانبه ، فيتبرأ من تلك الألفاظ مفردها ومركبها، فإن الوجوب عليه يوهم التكليف والإلزام، وبعبارة أخرى يوهم القهر والتأثر بالأغيار ، ورعاية المصلحة توهم إعمال النظر وإجالة الفكر . وهما من لوازم النقص فى العلم ، والغاية والعلة الغائية والغرض توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل إلى نهايته ، وفيها ما فى سوابقها . ولكن الله أكبر هل يصح أن تكون سعة المجال، أو التعفف فى المقال . سببا فى التفرقة بين المؤمنين وتماريهم فى الجدال حتى ينتهى بهم التفرق إلى ماصاروا إليه من سوء

(١) القياس هو قوله فى صحيفة ٥٧ فهذه الحكم التى نعرفها الآن الخ .

أفعال العبـــاد

كما يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج فى ذلك إلى دليل يهديه ولا معلم يرشده . كذلك أنه مدرك لأعماله الاختيارية . يزن نتائجها بعقله ويقدرها بإرادته ، ثم يصدرها بقدرة ما فيه ويعد إنكار شيء من ذلك مساويا لإنكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل .

كما يشهد بذلك (١) فى نفسه يشهده أيضاً فى بنى نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس، ومع ذلك فقد يريد إرضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى إلى منجاة فسقط فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه إن كان لم يحكم النظر فى تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته أول مرة مرشداً له فى الأخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم ، وبوسائل أحكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهى إن كان سبب الإخفاق فى المسعى منازعة منافس له فى مطلبه ، لوجدانه من نفسه أنه الفاعل فى حرمانه فينبرى لمناضلته . وتارة يتجه إلى أمر أسمى من ذلك إن لم يكن لتقصيره أو

(١) الظاهر حذف الباء فإنه من شهود الشيء لا الشهادة به كما فى سابق القول ولاحقه .

لمنافسة غيره دخل فيما لقى من مصير عمله ، كأن هب ريح فأغرق (١) بضاعته ، أو نزلت صاعقة فأحرقت ماشيته ، أوعلق أمله بمعين فمات أو بذى منصب فعزل . يتجه من ذلك إلى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل إليه سلطته فإن كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل إلى أن حوادث الكون بأسره مستندة إلى واجب وجود واحد يصرفه على مقتضى علمه وإرادته ، خشع وخضع ، ورد الأمر إليه فيما لقى ، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى ، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان أن قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات . ويشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية ـ عقلية كانت أو جسمانية قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله ، وقدعرف القوم شكر الله على نعمه ، فقالوا : هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه إلى ما خلق لأجله .

على هذا قامت الشرائع ، وبه استقامت التكاليف . ومن أنكر شيئا منه فقد أنكر مكان الإيمان من نفسه ، وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه .

---

(١) الريح مؤنثة ، وقد ذهل المؤلف عن تصحيحه ولم يتركه لأن التأنيث مجازى .

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ماقام عليه الدليل من إحاطة علم الله وإرادته، وبين ماتشهد به البداهة من عمل المختار، فيما وقع عليه الاختيار، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه، واشتغال بما لاتكاد تصل العقول إليه، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصاً من المسيحيين والمسلمين، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفاً حيث ابتدءوا، وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا، فمنهم القائل بسلطة العبد على جميع أفعاله واستقلاله المطلق وهو غرور ظاهر، ومنهم من قال بالجبر وصرح به، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه، وهو هدم للشريعة، ومحو للتكاليف. وإبطال لحكم العقل البديهى وهو عماد الإيمان.

ودعوى أن الاعتقاد بكسب العبد لأفعاله يؤدى إلى الإشراك بالله — وهو الظلم العظيم — دعوى من لم يلتفت إلى معنى الإشراك على ما جاء به الكتاب والسنة، فالإشراك اعتقاد أن لغير الله أثراً فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة، وأن لشىء من الأشياء سلطاناً على ما خرج عن قدرة المخلوقين، وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعيناً به فيما لا يقدر العبد عليه — كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش، والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله إليها، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية

بغير الطرق والسنن التي شرعها الله لنا .

هذا هو الشرك الذي كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم فجاءت الشريعة الإسلامية بمحوه ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية إلى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية (الأول) أن العبد يكسب بإرادته وقدرته ، ماهو وسيلة لسعادته (والثاني) أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات ، وأن من آثارها ما يحول بين العبد وبين إنفاذ ما يريده ، وأن لاشيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه .

جاءت الشريعة لتقرير ذلك وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه إلى إتمام عمله بعد إحكام البصيرة فيه ، وتكليفه أن يرفع همته إلى استمداد العون منه وحده بعد أن يكون قد أفرغ ماعنده من الجهد في تصحيح الفكر وإجادة العمل . ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب إلى غير ذلك .

هذا الذي قررناه قد اهتدى إليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم ، وعول عليه من متأخري أهل النظر إمام الحرمين الجويني (١) رحمه الله وإن أنكر عليه بعض من لم يفهمه .

(١) إمام الحرمين لقب أبي المعالي عبد الملك بن أبي محمد عبد الله ابن يوسف الجويني الذي نصر مذهب السلف بالصراحة التامة .

أكرر القول بأن الإيمان بوحدانية الله لايقتضى من المكلف إلا اعتقاده أن الله صرفه فى قواه ، فهو كاسب لإيمانه ولما كلفه الله به من بقية الأعمال ، واعتقاد أن قدرة الله فوق قدرته ، ولها وحدها السلطان الأعلى فى إتمام مراد العبد بازالة الموانع أو تهيئه الأسباب المتممة مما لايعلمه ولا يدخل تحت إرادته .

وأما التطلع إلى ماهو أغمض من ذلك فليس من مقتضى الإيمان كما بينا ، وإنماهو من شره العقول فى طلب رفع الأستار عن الأسرار . ولا أنكر أن قوماً قد وصلوا بقوة العلم والمثابرة على مجاهدة المدارك إلى ما اطمأنت به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ولكن قليل ماهم — على أن ذلك نور يقذفه الله فى قلب من شاء ، ويخص به أهل الولاية والصفاء وكثر ما ضل قوم وأضلوا وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم (١) .

لو شئت لقربت البعيد فقلت إن من بالغ الحكم فى الكون أن تتنوع الأنواع على ما هى عليه فى العيان ولا يكون النوع ممتازاً عن غيره حتى تلزمه خواصه ، وكذا الحال فى تميز الأشخاص ، فواهب

(١) هم جهلة أدعياء الولاية بالتصوف التقليدى الذين أفسدوا عقائد العامة بالجبر والخرافات

الوجود يهب الأنواع والأشخاص وجودها على ما هى عليه ، ثم كل وجود متى حصل كانت له توابعه ، ومن تلك الأنواع الإنسان ، ومن مميزاته - حتى يكون غير سائر الحيوانات - أن يكون مفكراً مختارا فى عمله على مقتضى فكره ، فوجوده الموهوب مستتبع لمميزاته هذه ، ولو سلب شيء منها لكان إما ملكا أو حيوانا آخر والفرض أنه الإنسان ، فهبة الوجود له لا شيء فيها من القهر على العمل . ثم علم الواجب محيط بما يقع من الإنسان بإرادته وبأن عمل كذا يصدر فى وقت كذا وهو خير يثاب عليه ، وأن عملا آخر . شر يعاقب عليه عقاب الشر . والأعمال فى جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار فلا شيء فى العلم بسالب للتخيير فى الكسب ، وكون ما فى العلم يقع لا محالة إنما جاء من حيث هو الواقع والواقع لا يتبدل .

ولنا فى علومنا الكونية أقرب الأمثال : شخص من أهل العناد يعلم علم اليقين أن عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة وليس لشيء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر فى اختياره لا بالمنع ولا بالإلزام . فانكشاف الواقع للعالم لا يصح فى نظر العقل ملزماً ولا مانعاً . وإنما يريك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ .

ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ولم تفسد فطرته بالمماحكات اللفظية ، لكن يمنعنى عن الإطالة فيه عدم الحاجة إليه فى صحة الإيمان . وتقاصر عقول العامة عن إدراك الأمر فى ذاته مهما بالغ المعبر فى الإيضاح عنه ، والتياث قلوب الجمهور من الخـــاصة بمرض التقليد ، فهم يتعقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ولا يريدونه إلا موافقا لما يعتقدون ، فإن جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا فى مقاومته ، وإن أدى ذلك إلى جحد العقل برمته . فأكثرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد ، فإن صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم « ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة الله فى خلقه ، وتحريف لهديه فى شرعه » عرتهم هزة من الجزع ، ثم عادوا إلى السكون ، محتجين بأن هذا هو المألوف ، وما أقمنا إلا على معروف . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

حسن الأفعال وقبحها

الأفعال الإنسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا ، وما تنفعل به نفوسنا عند الإحساس بها أو استحضار صورها ، يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقوع بعض الكائنات تحت حواسنا ، أو حضورها فى مخيلاتنا ـ وذلك بديهى لا يحتاج إلى دليل .

نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزاً بين الجميل من الأشياء والقبيح منها ، فإن اختلفت مشارب الرجال فى فهم جمال النساء ، أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال ، فلم يختلف أحد فى جمال ألوان الأزهار وتنضيد أوراق النباتات والأشجار ، خصوصاً إذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض ـ ولا فى قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها وانقطاع البعض الآخر على غير نظام ، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو إعجاب ومن القبيح اشمئزاز أو جزع ، وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات . يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات .

والمذوقات والمشمومات ، كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم بإحدى تلك الحواس .

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح فى الأشياء . ولكن لا يخالفنا أحد فى أن من خواص الإنسان بل وبعض الحيوان التمييز بينهما . وعلى هذا قامت الصناعات على اختلاف أنواعها وبه ارتقى العمران فى أطواره إلى الحد الذى نراه عليه الآن ، وإن اختلفت الأذواق ـ ففى الأشياء جمال وقبح .

هذا فى المحسوسات واضح كما سبق ، ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة فى الوضوح ما يلم به العقل من الموجودات المعقولة . وإن اختلف اعتبار الجمال فيها . فالكمال فى المعقولات كالوجود الواجب والأرواح اللطيفة وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه وتنبهر له بصائر لاحظيه . وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية ، وإن اختلف أثر الشعور ببعض أطواره فى الوجدان . عن أثر الإحساس بالقبيح فى المحسوسات ، وهل فى الناس من ينكر قبح النقص فى العقل . والسقوط فى الهمة ، وضعف العزيمة ؟ ويكفى أن أرباب هذه النقائص يجاهدون فى إخفائها ، ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون بأضدادها .

وقد يحمل القبيح بجمال أثره ، ويقبح الجميل بقبح مايقترن به ، فالمر قبيح مستبشع ، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر ، لكن أثر المر فى معالجة المرض ، وعدل الدميم فى رعيته أو إحسانه إليك فى خاصة نفسك ، يغير من حالتك النفسية عند حضور صوته ، فإن جمال الأثر يلقى على صاحبه أشعة من بهائه فلا يشعر الوجدان منه إلا بالجميل ومثل ذلك يقال فى قبح الحلو إذا أضر ، واشمئزاز النفس من الجميل إذا ظلم وأصر .

هل يمكن لعاقل أن لايقول فى الأفعال الاختيارية ،كما قال فى الموجودات الكونية ، مع أنها نوع منها ، وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية إما بنفسها وإما بأثرها ، وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما تنفعل بما يرد عليها من صور الكائنات ؟ كلا ، بل هى قسم من الموجودات حكمها فى ذلك حكم سائرها بالبداهة .

فمن الأفعال الاختيارية ماهو معجب فى نفسه تجد النفس منه ماتجد من جمال الخلق كالحركات العسكرية المنتظمة وتقلب المهرة من اللاعبين فى الألاعيب المعروفة اليوم « بالجناستيك » وكايقاع النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها . ومنها ماهو قبيح فى نفسه يحس منه مايحس من رؤية الخلق المشوه كتخبط ضعفاء

النفوس عند الجزع ، وكولولة النائحات ونقع المذعورين (١) .

ومنها ماهو قبيح لما يعقبه من الألم ، وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم . فالأول : كالضرب والجرح ، وكل مايؤلم من أفعال الإنسان . والثانى : كالأكل على جوع والشرب على عطش وكل مايحصل لذة أو يدفع ألماً مما لايحصى عده . وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى مايلذ . والقبيح بمعنى المؤلم .

وقلما يختلف تمييز الإنسان للحسن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود اللهم إلا فى قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح .

ومن الأفعال الاختيارية مايحسن باعتبار مايجلب من النفع ، وما يقبح بما يجر إليه من الضرر ، ويختص الإنسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى ، إذا أخذ من أكمل وجهاته ، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر ، اللهم إلا من أحط جهاته ، وهو خاصة العقل ، وسر الحكمة الإلهية فى هبة الفكر .

فمن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته كالإفراط فى تناول الطعام والشراب والانقطاع إلى سماع الأغانى والجرى فى أعقاب الشهوات ،

---

(١) نقعهم ، صياحهم . يقال : نقع الصوت إذا ارتفع ونقع الصارخ (كمفتح) نقعا ونقوعا : رفع صوته

فإن ذلك مفسدة للصحة ، مضيعة للعقل ، متلفة للمال ، مدعاة للعجز والذل .

وإنما قبح اللذيذ فى هذا الموضوع لقصر مدته وطول مدة مايجر إليه عادة من الآلام التى ربما لاتنتهى إلا بالموت على أسوأ حالاته ، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاساة شدائد الألم .

ومن المؤلم مايحسن كتجشم مشاق التعب فى الأعمال لكسب الرزق وتأمين النفس على حاجاتها فى أوقات الضعف ، ومجاهدة الشهوات ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن ، ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لايخالطه اضطراب ، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة إن عدت الحياة مثاراً لها .

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسنا : مقارعة الإنسان عدوه ، سواء كان من نوعه أو من غيره للمدافعة عن نفسه ، أو عن أنصاره ، ومنهم بنو أبيه ، أو قبيلته ، أو شعبه ، أو أمته — حسب ارتقائه فى الإحساس — ومخاطرته ولو بحياته فى سبيل ذلك ، كأنه يرى فى بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه ، وإن لم يحددها عقله . ومنه معاناة التعب فى كشف ماعمى عن علمه من حقائق الكون . كأنه لايرى المشقة فى ذلك شيئا بالقياس إلى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ماله من الاستطاعة ،

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد إلى ماكسبه الغير بسعيه ، واستشفاء ألم الحقد باتلاف نفس المحقود عليه ، أوماله ، لما فى ذلك من جلب المخافة العامة حتى على ذات المتعدى ، ويمكنك من نفسك استحضار مايتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها .

كل هذا عرفه العقل البشرى وفرق فيه بين الضار والنافع ، وسمى الأول فعل الشر ، والثانى عمل الخير ، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وقد حددهما النظر الفكرى على تفاوت فى الإجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين ، وناط بهما سعادة الإنسان وشقاءه فى هذه الحياة . كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده ، وعزة الأمم وذلتها ، وضعفها وقوتها ، وإن كان المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ من الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر .

كل هذا من الأوليات العقلية لم يختلف فيه ملى ولا فيلسوف ، فللأعمال الاختيارية حسن وقبح فى نفسها أو باعتبار أثرها فى الخاصة أو فى العامة ، والحس أو العقل قادر على تمييز ماحسن منها وماقبح بالمعانى السابقة بدون توقف على سمع ، والشاهد على ذلك مانراه فى بعض أصناف الحيوان ، وما نشهده فى أفاعيل الصبيان قبل تعقل مامعنى الشرع وما وصل إلينا من تاريخ الإنسان

وما عرف عنه فى جاهليته .

ومما يحسن ذكره هنا ماشاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل .

قال : كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها(١) فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع المناسب فأمرت بهدمه فهدم ، ورفع البنيان إلى الحد الموافق ، ووضع السقف على أرفع مما كان ، وذلك من أنقاض السقف القديم . وهذا هو التمييز بين الضار والنافع - فمن زعم أن لاحسن ولا قبح فى الأعمال على الاطلاق فقد سلب نفسه العقل ، بل عدها أشد حمقاً من النمل(٢) .

سبق لنا أن واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل فإذا وصل مستدل ببرهانه إلى إثبات الواجب وصفاته غير السمعية ولم تبلغه بذلك رسالة كما حصل لبعض أقوام من البشر ، ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه إلى أن مبدأ العقل فى الإنسان يبقى بعد موته كما وقع لقوم آخرين . ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا إلى أن بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لها فيه

---

(١) كان ينبغى أن يقول قرية لها (٢) ليته قال أقل علماً من النمل وقد روى عن سليمان عليه السلام : كن حكيما كالنملة

أو شقاء ثم قال إن سعادتها إنما تكون بمعرفة الله وبالفضائل وأنها إنما تسقط فى الشقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل ، وبنى على ذلك أن من الأعمال ماهو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ، ومنها ماهو ضار لها بعده بإيقاعها فى الشقاء ، فأى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله . إن معرفة الله واجبة ، وإن جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة وإن الرذائل وما يكون عنها محظورة ، وأن يضع لذلك مايشاء من القوانين ليدعو بقية البشر إلى الاعتقاد بمثل مايعتقد ، وإلى أن يأخذوا من الأعمال بمثل ما أخذ به من حيث لم يوجد شرع يعارضه .

أما أن يكون ذلك حالا لعامة الناس يعلمون بعقولهم أن معرفة الله واجبة ، وأن الفضائل مناط السعادة فى الحياة الأخرى ، والرذائل مدار الشقاء فيها . فما لايستطيع عاقل أن يقول به . والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به فى رأيه .

لو كانت حاجات الإنسان ومخاوفه محدودة كما هى حاجات فيل أو أسد مثلا ، وكان ماوهب له من الفكر واقفا عند حد ما إليه الحاجة ، لاهتدى إلى المنافع واتقاء المضار على وجه لايختلف فيه أفراده ، ولسعدت حياته ، وتخلص كل من شر الآخر ، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع .

لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد ، ولا تختص معيشته بجو من الجواء (١) ولا بوضع من الأوضاع ، وأن يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله فى سد عوزه وتوفير لذاته فى أى إقليم وعلى أى حال ، وأن يختلف ظهور هذه المدارك فى أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تتناهى درجاته — ولولا هذا لما خالف بقية الحيوانات إلا باستقامة القامة، وعرض الأظفار .

* * *

وهب الله الإنسان أوساط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان: الذاكرة والمخيلة والمفكرة - فالذاكرة : تثير من صور الماضى ماسترة الاشتغال بالحاضر ، فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه إليه الأشباه أو الأضداد الحاضرة ، فقد يذكر الشىء بشبهه وقد يذكر بضده كما هو بديهى — والخيال يجسم من المذكور وما يحيط به من الأحوال حتى يصير كأنه مشاهد ، ثم ينشىء له مثال لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ما ذهب به الماضى ، ويهز النفس فى طلبه أو الهرب منه ، فتلجأ إلى الفكر فى تدبير الوسيلة إليه .

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الإنسان ومنها ينبوع بلائه-

(١) الجو جمعه جواء كسهم وسهام ، وكان فى الأصل الأجواء .

فمن الناس معتدل الذكر هادىء الخيال صحيح الفكر ، ينظر مثلا فى حال مسرف أنفق ماله فى غير نافع وضاقت يده عما يقيم معيشته فيذكر ألما لحاجة مضت ، ثم يتخيل المال ومنافعه وما تتمتع به النفس من اللذة به سواء فى سد حاجاته أو فى دفع الألم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره بإعطاء المضطر ما يذهب بضرورته ، ثم يتخيل ذلك المال آتيا من وجوهه التى لا يعلق بها حق من حقوق غيره ، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة إليه من تلك الوجوه بالعمل القويم فى استخدام ماوهبه الله من القوى فى نفسه ، وما سخره له من قوى الكون المحيط به .

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال ، يرى مالا مثلا فى يد غيره فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ، ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل ، ولا يزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بها حتى يقع ظل الخيال على طريق الفكر ، فيستتر عنه ما طاب من وجوه الكسب وإنما يعمد إلى استعمال قوته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه لينفقه فيما تخيل من المنفعة ، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له وأخل بالأمن الذى أفاضه الله بين عباده وسن سنة الاعتداء فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول إلى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله

وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعا على نحو ما بينا فى المثالين - فلقوة الذاكرة وضعها ، وحدة الخيال واعتداله واعوجاج الفكر واستقامته ، أعظم أثر فى التمييز بين النافع والضار فى أشخاص الأعمال ، وللأمزجة والجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر بل وفى الذكر .

فالناس متفقون على أن من الأعمال ماهو نافع ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه إصابة وجه الحق فى معرفة ذلك ، ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان أدوم فائدة وإن كان مؤلما فى الحال ، وأن القبيح ما جر إلى فساد فى النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به وإن عظمت لذته الحاضرة ، ولكنهم يختلفون فى النظر إلى كل عمـــل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم ، وجميع ما يكتنف بهم[1] ، فلذلك ضربوا إلى الشر فى كل وجه ، وكل يظن أنه إنما يطلب نافعا ويتقى ضاراً . فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه ما فيه سعادته فى هذه الحياة .

(١) يقال : اكتنفه القوم بمعنى أحاطوا به فهو يتعدى بنفسه وعداه بالباء بحسب معناه .

اللهم إلا فى قليـــل ممن لم يعرفهم الزمن ، فإن كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم أشار إليهم الدهر بأصابع الأجيال ، وقد سبقت الإشارة إليهم فيما مر .

وليست عقول الناس ، سواء فى معرفة الله تعالى ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة ، فهم وإن اتفقوا فى الخضوع لقوة أسمى من قواهم وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ، ولـكن أفسدت الوثنية عقولهم وانحرفت بهـا عن مسلك السعادة . فليس فى سعة العقل الإنسانى فى الأفراد كافة أن يعرف ، من الله ما يجب أن يعرف ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ، ولا أن يقرر لـكل نوع من الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة ، وإنما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصهم الله بكمال العقل ونور البصيرة ، وإن لم ينل (١) شرف الاقتداء بهدى نبوى ، ولو بلغه لـكان أسرع الناس إلى اتباعه وهؤلاء ربما يصلون بأفـكارهم إلى العرفان من وجهة غير ما يليق فى الحقيقة أن ينظر منه إلى الجلال الإلهى .

ثم من أحوال الحياة الأخرى ، ما لا يمكن لعقل بشرى أن يصل إليه وحـده ، وهو تفصيل اللذائذ والآلام وطرق المحاسبة على الأعمال ولو بوجه ما .

---

(١) الفاعل ضمير يعود إلى كلمة قليل بحسب لفظها .

ومن الأعمال مالا يمكن أن يعرف وجه الفائدة فيه (١) لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها ، كصور بعض العبادات كما يرى فى أعداد الركعات ، وبعض الأعمال فى الحج فى الديانة الإسلامية ، وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية (٢) وضروب التوسل والزهادة فى

(١) أى لا يعرف وجه الفائدة فيه نفسه غير كونه تعبدا مع ظهور فائدته التعبدية وهو فعله لمحض امتثال أمر الله تعالى دون ملاحظة منفعة خاصة به ، ويعبرون عن هذا القسم من العبادة بغير معقول المعنى ويقابله معقول المعنى جملة وتفصيلا كالوضوء والغسل وطهارة البدن والثوب فان فائدة ذلك من حفظ الصحة وراحة النفس وهناء العيشة ظاهرة . كذلك فائدة الصلاة فى جملتها والصيام والزكاة وغير ذلك من حكم العبادات وقد أجملها المؤلف فى الكلام على الدين الإسلامى ومن المستغرب قوله هنا : لافى هذه الحياة ولا فيما بعدها .

(٢) يظهر لى أن حكمة بعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية هى محاكاة ما ألفه اليهود فى مصر ثم فى فلسطين من رؤية احتفالات الأمم الوثنية مع توجيه الأنفس فيه إلى عبادة الله تعالى والتوجه إليه وحده حتى لايعودوا إلى مثال مافعلوا فى التيه من اتخاذ عجل كعجل المصريين (أبيس) وإلى مثل عبادتهم .

وأما المبالغة فى الزهد المتواتر عن المسيح عليه السلام فحكمته المبالغة فى مقاومة غلو اليهود والرومان فى عصره فى عبادة المال والشهوات البدنية تمهيداً لدين الإسلام الوسط المعتدل الدائم الذى يجىء به البارقليط روح الحق محمد ﷺ الذى بشرهم به وقال إنه هو الذى يعلمهم كل شىء .

الديانة العيسوية - كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ، ويعلم الله أن فيه سعادته (١) .

لهذا كله كان العقل الإنسانى محتاجا - فى قيادة القوى الإدراكية والبدنية إلى ماهو خير له فى الحياتين - إلى معين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة - وبالجملة فى وسائل السعادة فى الدنيا والآخرة ، ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من بنى جنسه ليفهم منه أو عنه مايقول ، وحتى يكون ممتازا على سائر الأفراد بأمر فائق على ماعرف فى العادة وما عرف فى سنة الخليقة ويكون بذلك مبرهنا (٢) على أنه يتكلم على الله الذى يعلم مصالح العباد على ماهى عليه ، ويعلم صفاته الكمالية وما ينبغى أن يعرف منها ، والحياة الآخرة وما أعد فيها ، فيكون الفهم عنه والثقة بأنه يتكلم عن

---

(١) ضرب الغزالى مثلا لمعرفة المكلف فائدة العبادة فى جملتها دون بعض تفصيل جزئياتها ووجوب تفويض ذلك إلى علم الله تعالى ، فشبهها بالدواء يعلم المريض بالتجربة أو الثقة بالأطباء أنه يشفى من المرض وهو يجهل فائدة تركبه من أجزاء بعضها قليل كقمحة أو قمحتين وبعضها كثير كأوقية أو عشر أواق مثلا ، ويفوض ذلك إلى علم الطبيب .

(٢) أكثر نقلة اللغة على أن النون فى البرهان زائدة وأن قولهم برهن مولد وإنما يقال أبره أى جاء بالبرهان وحكى بعضهم الوجهين كالأزهرى .

العليم الخبير معيناً للعقل على ضبط ماتشتت عليه ، أو درك ماضعف عن إدراكه .

وذلك المعين هو « النبي »

النبوة تحدد ماينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات وما يحتاج إليه البشر كافة من ذلك ، وتشير إلى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم فى مقامات عرفانهم لكنها لاتحتم إلا مافيه الكفاية للعامة . فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله وبوحدانيته وبالصفات التى أثبتناها على الوجه الذى بيناه . وأرشدت إلى طرق الاستدلال على ذلك . فوجوب المعرفة على هذا الوجه المخصوص ، وحسن المعرفة وحظر الجهالة أو الجحود بشىء مما أوجبه الشرع فى ذلك وقبحه ، مما لايعرف إلا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ، ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذى هو عماد الطمأنينة ، فإن زيد على ذلك أن العرفان على مابينه الشرع يستحق المثوبة المعينة فيه ، وضده يستحق العقوبة التى نص عليها ـ كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة ، غير أن ذلك لاينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها وإنما جاء الشرع مبينا للواقع ، فهو ليس محدث الحسن ، ونصوصه تؤيد ذلك .

وأذكر مثالا من كثير : قال تعالى على لسان يوسف (١٢ : ٣٩ أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ؟) يشير بذلك إشارة واضحة إلى أن تفرق الآلهة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم إلى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم . وهو يذهب بكل فريق إلى التعصب لما وجه قلبه إليه ، وفى ذلك فساد نظامهم كما لايخفى ، وأما اعتقاد جميعهم بإله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم إلى سلطان واحد يخضع الجميع لحكمه ، وفى ذلك نظام إخوتهم ، وهى قاعدة سعادتهم ، وإليها مآلهم فيما أعتقد وإن طال الزمان (١) فكما جاء الشرع مطالباً بالاعتقاد جاء هادياً لوجه الحسن فيه ،

النبوة تحـــدد أنواع الأعمال التى تناط بها سعادة الإنسان فى الدارين ، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها ، وكثيراً ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى

(١) كان المؤلف رضى الله عنه يعتقد أن ارتقاء الأمم من طريق علوم الكون والنفس والاجتماع سينتهى بهم إلى التوحيد وسائر ماقرره القرآن من أصول الدين (٤١ : ٥٣ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ، أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد ٥٤ ألا إنهم فى مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شىء محيط)

عنه ، فوجوب عمل من المأمور به أو الندب إليه ، وحظر عمل أو كراهته من المنهى عنه على الوجه الذى حددته الشريعة وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ومجازى عليه بعقوبة كذا — مما لايستقل العقل بمعرفته ، بل طريقة معرفته شرعية ، وهو لاينافى أيضاً أن يكون المأمور به حسناً فى ذاته ، بمعنى أنه مما يؤدى إلى منفعة دنيوية أو أخروية باعتبار أثره فى أحوال المعيشة أو فى صحة البدن أو فى حفظ النفس أو المال أو العرض ، أو فى زيادة تعلق القلب بالله جل شأنه ، كما هو مفصل فى الأحكام الشرعية . وقد يكون من الأعمال مالا يمكن درك حسنه ، ومن المنهيات مالا يعرف وجه قبحه ، وهذا النوع لاحسن له إلا الأمر ، ولا قبح إلا النهى . والله أعلم .

الرسالة العامة

نريد بالرسالة العامة بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقائد والأحكام عن الله خالق الإنسان وموفيه مالا غنى له عنه، كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجاتها ووقاء وجودها على القدر الذى حدد لها فى رتبة نوعها من الوجود.

والكلام فى هذا البحث من وجهين (الأول) وهو أيسرهما على المتكلم ـ وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الإيمان (١) فيجب على كل مؤمن ومؤمنة، أن يعتقد أن الله أرسل رسلا من البشر مبشرين بثوابه. ومنذرين بعقابه قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته، وتبيين سلطانه القاهر على عباده، وتفصيل لأحكامه، فى فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها، وفى نقائص فعال وخلائق ينهاهم عنها ـ وأن يعتقد وجوب تصديقهم فى أنهم يبلغون ذلك عن الله، ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم، والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه، وأن يعتقد أن منهم من أنزل

(١) يقابل هذا الوجه حاجة البشر إلى الرسالة وقد عقد له فصلا خاصاً سيأتى فى (صفحة ٨٩)

الله عليه كتبا تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ، ومن الحدود والأحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها ، وأن هذه الكتب التى أنزلت عليهم حق - وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العناية الإلهية بما لا يمهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية . وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبى فى دعواه ، فمتى ادعى الرسول النبوة واستدل عليها بالمعجزة وجب التصديق برسالته .

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقاد بعلو فطرتهم ، وصحة عقولهم ، وصدقهم فى أقوالهم ، وأمانتهم فى تبليغ ماعهد إليهم أن يبلغوه . وعصمتهم من كل مايشوه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار ، وتنفر منه الأذواق السليمة ، وأنهم منزهون عما يضاد شيئا من هذه الصفات المتقدمة ، وأن أرواحهم ممدودة من الجلال الإلهى بما لا يمكن معه لنفس إنسانية أن تسطو عليها سطوة روحانية - أما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم مايعترى سائر أفراده : يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لاعلاقة له بتبليغ الأحكام - ويمرضون وتمتد إليهم أيدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتل الأنبياء .

المعجزة ليست من نوع المستحيل عقلا فإن مخالفة السير الطبيعى

المعروف فى الإيجاد مما لم يقم دليل على استحالته ، بل ذلك مما يقع كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيها وهو صحيح لمات مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الإتلاف .

فإن قيل : إن ذلك لابد أن يكون تابعاً لناموس آخر طبيعى .

قلنا : إن واضع الناموس هو موجد الكائنات . فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية مافى الأمر أننا لانعرفها ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده ، على أننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار يسهل علينا العلم بأنه لايمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة وتابعا لأى سبب إذا سبق فى علمه أنه يحدثه كذلك .

المعجزة لابد أن تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة ، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده ، لأن النبى يستند إليها فى دعواه أنه مبلغ عن الله ، فإصدار الله لها عند ذلك يعد تأييداً منه له فى تلك الدعوى . ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب ، فإن تأييد الكاذب تصديق له ، وتصديق الكاذب كذب وهو محال على الله (١) فمتى ظهرت المعجزة وهى مما لايقدر

---

(١) يشير المصنف إلى أن دلالة المعجزة وضعية . لأنها بمعنى التصديق بالقول وهو المشهور ، وقيل عقلية وقيل : عادية ، ومن : هذه المباحث ما قرره المتكلمون بأدلتهم النظرية ولم يرد فى النصوص السمعية

عليه البشر ، وقارن ظهورها دعوى النبوة علم بالضرورة أن الله ما أظهرها إلا تصديقاً لمن ظهرت على يده ، وإن كان هذا العلم قد يقارنه الإنكار مكابرة .

وأما السحر وأمثاله فإن سلم أن مظاهره فائقة عن[1] آثار الأجسام والجسمانيات فهي لا تعلو عن متناول القوى الممكنة فلا يقارب المعجزة في شيء .

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم ، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس أخر ، أو مس عقولهم شيء من الضعف — لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الإلهي الذي يفوق كل اختصاص : اختصاصهم بوحيه ، والكشف لهم عن أسرار علمه . ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات لكان انزعاج النفس لمرآهم ، حجة للمنكر في إنكار دعواهم . ولو كذبوا أو خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة

(١) فعل « فاق » يتعدى بنفسه يقال : فاق أقرانه ولعله ضمنه معنى الانفصال على القول بقياسية التضمين ، ومثله قوله بعده « لا تعلو عن متناول القوى » . يقال : علاه وعلا بعضهم على بعض وقد ضمنه معنى البعد ، والسحر ليس من الخوارق كما توهم بعض المتكلمين فإنه صناعة تتلقى بالتعليم كما ثبت بنص القرآن وتاريخ قدماء المصريين وغيرهم وقد بينا حقيقته في تفسير قصة هاروت وماروت (صفحة ٣٩٧ من الجزء الأول من تفسير المنار)

بهم ، ولكانوا مضلين لا مرشدين فتذهب الحكمة من بعثهم ، والأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد إليهم تبليغه من العقائد والأحكام .

وأما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ولا له مدخل فى التشريع فجوزه بعضهم ، والجمهور على خلافه ، وما ورد من مثل أن النبى صلى الله عليه وسلم نهى عن تأبير النخل(١) ثم أباحه لظهور أثره فى الإثمار فإنما فعله عليه الصلاة والسلام ليعلم الناس أن مايتخذونه من وسائل الكسب وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ، ولا حظر عليهم فيه مادامت الشرائع مرعية ، والفضائل محمية ، وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فما خفى فيه سر النهى عن الأكل والمؤاخذة

(١) « تأبير النخل » تلقيحه والحديث فى صحيح مسلم والروايات صريحة فى تأييد قول المجوزين دون الجمهور ، منها رواية موسى بن طلحة عن أبيه مرفوعا « إن كان ذلك ينفعهم فليصنعوه فإنى إنما ظننت ظناً فلا تؤاخذونى بالظن ، ولكن إذا حدثتكم عن الله شيئا فخذوا به فإنى لن أكذب على الله عز وجل » ورواية رافع بن خديج « إنما أنا بشر إذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به ، وإذا أمرتكم بشىء من رأيى فإنما أنا بشر » ورواية عائشة « أنتم أعلم بأمر دنياكم » .

عليه ، وغاية ما علمناه من حكمته أنه كان سببا لعمارة الأرض ببنى آدم كأن النهى والأكل رمزان إلى طورين من أطوار آدم عليه السلام أو مظهران من مظاهر النوع الإنسانى فى الوجود . والله أعلم (١) ومن العسر إقامة الدليل العقلى أو إصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب إليه الجمهور .

(١) للمؤلف رحمه الله كلام مفصل فى هذه المسألة قرره فى تفسير قصة آدم من سورة البقرة يطلب من الجزء الأول من تفسير المنار فهو مما لم يحم حوله أحد فيما علمنا

وقد قيل أيضا : إن آدم عليه السلام لم يكن فى الجنة نبيا رسولا ولم يكن معه أمة يخشى أن تسوء قدوتهم به . وقد صح فى حديث الشفاعة أن نوحا أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض ، وهو ظاهر عدة آيات فى القرآن لامحل هنا لذكرها ، وإنما الغرض هنا أن قصة آدم عليه السلام لاترد على الدليل النظرى الذى استدلوا به على عصمة الأنبياء . والجمهور يقولون بأن عصمتهم إنما تثبت بعد النبوة لاقبلها ، والمجمع عليه منها العصمة فى التبليغ أو عما ينافى الرسالة وعن الكفر ، قال السعد فى شرح المقاصد ، والمذهب عندنا منع الكبائر بعد البعثة مطلقا ، والصغائر عمداً لا سهواً ، لكن لايصرون ولا يقرون بل ينبهون فيتنبهون . ثم أجاب عن معصية آدم بأنها كانت قبل البعثة (قال) وكيف ولم تكن فى الجنة أمة وكان عن نسيان لقوله تعالى (فنسى) الخ .

حاجة البشر إلى الرسالة

سبق لك فى الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الأول وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده فى الرسل . والكلام فى هذا الفصل موجه إن شاء الله إلى بيان الحاجة إليهم . وهو معترك الأفهام، ومزلة الأقدام ، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام ، ولسنا بصدد الإتيان بما قال الأولون ، ولا عرض ماذهب إليه الآخرون ولكننا نلزم ما التزمنا فى هذه الوريقات من بيان المعتقد ، والذهاب إليه من أقرب الطرق . من غير نظر إلى ما مال إليه المخالف ، أو استقام عليه الموافق ، اللهم إلا إشارة من طرف خفى ، أو إلماعاً لا يستغنى عنه القول الجلى .

وللكلام فى بيان الحاجة إلى الرسل مسلكان (الأول) ـ وقد سبق الإشارة إليه ـ يبتدىء من الاعتقاد ببقاء النفس الإنسانية بعد الموت ، وأن لها حياة أخرى بعد الحياة الدنيا تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم ، وأن السعادة والشقاء فى تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء فى حياته الفانية ، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والإرادات ، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات .

اتفقت كلمة البشر موحدين ووثنيين مليين وفلاسفة إلا قليلا لا يقام لهم وزن على أن لنفس الإنسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن وأنها لا تموت موت فناء (١) وإنما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وإن اختلفت منازعهم فى تصوير ذلك البقاء وفيما تكون عليه النفس فيه ، وتباينت مشاربهم فى طرق الاستدلال عليه فمن قائل بالتناسخ فى أجساد البشر أو الحيوان على الدوام ومن ذاهب إلى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال ، ومنهم من قال ، إنها متى فارقت الجسد عادت إلى تجردها عن المادة حافظة لما فيه لذتها أو ما به شقوتها ، ومنهم من رأى أنها تتعلق بأجسام أثيرية ، ألطف من هذه الأجسام المرئية . وكان اختلاف المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الأخرويين وفيما هو متاع الحياة الآخرة ، وفى الوسائل التى تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم ، وتضارب آراء الأمم فيه قديما وحديثا مما لا تكاد تحصى وجوهه .

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة المنبث فى جميع الأنفس عالمها ، وجاهلها ، وحشيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها . قديمها وحديثها ، لا يمكن أن يعد ضلة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وإنما هو من

(١) يريد بالفناء المنفى الزوال المطلق وإلا فالفناء يطلق على ما فسر به الموت المحتوم .

الإلهامات التى اختص بها هذا النوع ، فكما ألهم الإنسان أن عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا ، وإن شذ أفراد منه ذهبوا إلى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للإرشاد فى عمل ما ، أو إلى أنه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقاد ، ولا للفكر أن يصل إلى مجهول ، بل قالوا إنه لا وجود للعالم إلا فى اختراع الخيال ، وأنهم شاكون حتى فى أنهم شاكون ، ولم يطعن شذوذ هؤلاء فى صحة الإلهام العام المشعر لسائر أفراد النوع ، أن الفكر والعقل هما ركنى الحياة وأس البقاء إلى الأجل المحدود ، كذلك قد ألهمت العقول وأشعرت النفوس أن هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان فى الوجود ، بل الإنسان ينزع هذا الجسد كما ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وإن لم يدرك كنهه .

ذلك إلهام يكاد يزاحم البديهة فى الجلاء ، يشعر كل نفس أنها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية من طرق غير محصورة شيقة إلى لذائذ غير محدودة ولا واقفة عند غاية ، مهيأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات ، معرضة لآلام من الشهوات ونزعات الأهواء ، ونزوات الأمراض على الأجساد . ومصارعة الجواء والحاجات ، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ، ولا تنتهى عند حد ، إلهام يلفتها بعد هذا الشعور إلى أن واهب الوجود للأنواع ، إنما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى

البقاء ولم يعهد فى تصرفه العبث والكيل الجزاف ، فما كان استعداده لقبول ما لا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات ، لا يصح أن يكون بقاؤه قاصراً على أيام أو سنين معدودات .

شعور يهيج بالأرواح إلى تحسس هذا البقاء الأبدى . وما عسى أن تكون عليه متى وصلت إليه ، وكيف الاهتداء وأين السبيل ، وقد غاب المطلوب وأعوز الدليل ؟ شعورنا بالحاجة إلى استعمال عقولنا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الأقوم ، بل لزمتنا الحاجة إلى التعليم والإرشاد وقضاء الأزمنة والأعصار ، فى تقويم الأنظار وتعديل الأفكار وإصلاح الوجدان ، وتثقيف الأذهان ، ولا نزال إلى الآن من هم هذه الحياة الدنيا فى اضطراب لا ندرى متى نخلص منه ، وفى شوق إلى طمأنينة لا نعلم متى ننتهى إليها .

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة ، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب ؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها إلى الغائب ؟ وهل فى طوق الفكر ما يوصل كل أحد إلى معرفة ماقدر له فى حياة يشعر بها ، وبأن لا مندوحة عن القدوم عليها ، ولكن لم يؤت من القوة ما ينفذ إلى تفصيل ما أعدله فيها والشئون التى لابد أن يكون عليها بعد مفارقة ماهو فيه ، أو إلى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشئون ؟ .

هـــل فى أساليب النظر ما يأخذ بك إلى اليقين بمناطها من الاعتقادات والأعمال، وذلك الكون مجهول لديك، وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة إليك؟ كلا فإن الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر، ولا اشتراك بينهما إلا فيك أنت، فالنظر فى المعلومات الحاضرة، لا يوصل إلى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة.

أفليس من حكمة الصانع الحكيم، الذى أقام أمر الإنسان على قاعدة الإرشاد والتعليم، الذى خلق الإنسان، وعلمه البيان، علمه الكلام للتفاهم، والكتاب للتراسل، أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها بمحض فضله بعض من يصطفيه من خلقه، وهو أعلم حيث يجعل رسالته؟ يميزهم بالفطر السليمة، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معـــه للاستشراق بأنوار علمه، والأمانة على مكنون سره مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمه، فيشرفون على الغيب بإذنه، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين: نهاية الشاهد وبداية الغائب، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله، وما خفى عن العقول من شئون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه

وما قدر أن يكون له مدخل فى سعادتهم الأخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لابد لهم من علمه ، معبرين عنه بما تحمله طاقة عقولهم ، ولا يبعد من متناول أفهامهم ، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال ماهو مناط سعادتهم وشقائهم ، فى ذلك الكون المغيب من مشاعرهم بتفصيله اللاصق علمه بأعماق ضمائرهم فى إجماله ، ويدخل فى ذلك جميع الأحكام المتعلقة بكليات الأعمال ظاهرة وباطنة ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الإقناع بصدق الرسالة ، فيكونون بذلك رسلا من لدنه إلى خلقه مبشرين ومنذرين .

لا ريب أن الذى أحسن كل شىء خلقه ، وأبدع فى كل كائن صنعه وجاد على كل حى بما إليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيراً ولا جليلا من خلقه ، يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه ، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره ، أن ينقذه من حيرته ويخلصه من التخبط فى أهم حياتيه ، والضلال فى أفضل حاليه .

يقول قائل : ولم لم يودع فى الغرائز ما تحتاج إليه من العلم . ولم

يضع فيها الانقياد إلى العمل وسلوك الطريق المؤدية إلى الغاية فى الحياة الأخرى ؟ وماهذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم؟ وهو قول يصدر عن شطط العقل ، والغفلة عن موضوع البحث ـ وهو النوع الإنسانى ـ ذلك النوع على مابه ، وما دخل فى تقويم جوهره من الروح المفكر ، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاستعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه مستعدا لكل حال بطبعه وأن يكون وضع وجوده على عماد البحث والاستدلال فلو ألهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع ، بل كان إما حيوانا آخر كالنحل والنمل ، أوملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض .

المسلك الثانى فى بيان الحاجة إلى الرسالة

يؤخذ من طبيعة الإنسان نفسه

أرتنا الأيام غابرها وحاضرها ، أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر ، وينقطع إلى بعض الغابات ، أو إلى رءوس الجبال . ويستأنس إلى الوحش ، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان يتغذى بالأعشاب وجذور النبات ، ويأوى إلى الكهوف والمغاور ، ويتقى بعض العوادى عليه بالصخور والأشجار ، ويكتفى من الثياب بما يخصف من ورق الشجر ، أو جلود الهالك من حيوان البر ، ولايزال كذلك حتى يفارق الدنيا .

ولكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدبر(١) وتعيش عيشة لاتتفق مع ماقدر لنوعها ، وإنما الإنسان نوع من تلك الأنواع التى غرز فى طبعها أن تعيش مجتمعة وإن تعددت فيها الجماعات ، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع فى بقائه ، وللمجموع من العمل مالا غنى للواحد عنه فى نمائه وبقائه ، وأودع فى كل شخص من أشخاصها شعور مابحاجة إلى سائر أفراد الجماعة

---

(١) الدبر بالفتح والكسر : جماعة النحل ، وكذا الزنابير .

التى يشملها اسم واحد . وتاريخ وجود الإنسان شاهد بذلك . فلا حاجة إلى الإطالة فى بيانه . وكفاك من الدليل على أن الإنسان لا يعيش إلا فى جملة ماوهبه من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه مستعداً لتصوير المعانى فى الألفاظ وتأليف العبارات إلا لاشتداد الحاجة به إلى التفاهم ، وليس الاضطرار إلى التفاهم بين اثنين أو أكثر ، إلا الشهادة بأن لاغنى لأحدهم عن الآخر .

حاجة كل فرد من الجماعة إلى سائرها مما لا يشتبه فيه ، وكلما كثرت مطالب الشخص فى معيشته ، ازدادت به الحاجة إلى الأيدى العاملة ، فتشتد الحاجة ، وعلى أثرها ، الصلة من الأهل إلى العشيرة ثم إلى الأمة وإلى النوع بأسره ، وأيامنا هذه شاهدة على أن الصلة التابعة للحاجة ، تعم النوع كما لا يخفى .

هذه الحاجة ـ خصوصاً فى الأمة التى حققت عنوانها ـ لها صلات وعلائق ميزتها عما سواها : حاجة فى البقاء ، حاجة فى التمتع بمزايا الحياة ، حاجة فى جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع .

لو جرى أمر الإنسان على أساليب الخلقة فى غيره ، لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده ، عامل يشعر كل نفس أن بقاءها مرتبط ببقاء الكل . فالكل منها بمنزلة بعض قواها

المسخرة لمنافعها ودرء مضارها ، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة إلى القلوب ، هى الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر ، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه فى حالة الخطر ، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظاً لنظام الأمم وروحا لبقائها ، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون ، فإن المحبة حاجة لنفسك إلى من تحب أو ماتحب ، فإن اشتدت كانت ولعا وعشقا .

لكن كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين إذا كانت الحاجة إلى ذات المحبوب أو ماهو فيها لا يفارقها ، ولا يكون هذا النوع منها فى الإنسان إلا إذا كان منشؤه أمراً فى روح المحبوب وشمائله التى لاتفارق ذاته ، حتى تكون لذة الوصول فى نفس الاتصال لافى عارض يتبعه ، فإذا عرض التبادل والتعارض ولوحظ فى العلاقة بينهما تحولت المحبة إلى رغبة فى الانتفاع بالعوض ، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع ، وقام بين الشخصين مقام المحبة ، إما سلطان القوة ، أو ذلة المخافة ، أو الدهان والخديعة من الجانبين .

يحب الكلب سيده ويخلص له ويدافع عنه دفاع المستميت لما يرى أنه مصدر الإحسان إليه فى سداد عوزه ، فصورة شبعه وريه

وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكفلها له ، فهو يتوقع فقدها بفقده فيحرص عليه حرصه على حياته ، ولو أنه انتقل من حوزته إلى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضا لخطر ما عادت إليه تلك الصورة يصل بعضها بعضا واندفع إلى خلاصه بما تمكنه القوة .

ذلك لأن الإلهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب ، فوجدانه يتردد بين الإحسان ومصدره ، وليس وراءهما مذهب ، فحاجته فى سد عوزه هى حاجته إلى القائم بأمره ، فيحبه محبته لنفسه ، ولا يبخس منها شوب التعاوض فى الخدمة .

أما الإنسان - وما أدراك ما هو - فليس أمره على ذلك . ليس ممن يلهم ولا يتعلم ، ولا ممن يشعر ولا يتفكر ، بل كان كماله النوعى فى إطلاق مداركه عن القيد ، ومطالبه عن النهايات . وتسليمه على صغره إلى العالم الأكبر على جلالته وعظمه ، يصارعه بعوامله وهى غير محصورة حتى يعتصر منه منافعه وهى غير محدودة ، وإيداعه من قوى الأدراك والعمل ما يعينه على المغالبة ، ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ، ويتبع ذلك أن يكون له فى كل كائن مما يصل إليه لذة ، وبجوار كل لذة ألم ومخافة ، فلا تنتهى رغائبه إلى غاية ، ولا تقف مخاوفه عند نهاية (٧٠ : ١٩ إن الإنسان خلق هلوعا ٢٠ إذا مسه الشر جزوعا ٢١ وإذا مسه الخير منوعا)

تفاوتت أفراده فى مواهب الفهم وفى قوى العمل ، وفى الهمة والعزم ، فمنهم المقصر ضعفا أوكسلا ، المتطاول فى الرغبة شهوة وطمعا ، يرى فى أخيه أنه العون له على مايريد من شئون وجوده ، لكنه يذهب من ذلك إلى تخيل اللذة فى الاستئثار بجميع ما فى يده ولا يقنع بمعاوضته فى ثمرة من ثمار عمله ، وقد يجد اللذة فى أن يتمتع ولا يعمل . ويرى الخير فى أن يقيم مقام العمل ، إعمال الفكر فى استنباط ضروب الحيل ، ليتمتع وإن لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لاضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ، ولا يبالى بإرساله إلى عالم العدم بعد سلبه ، فكلما حثه الذكر والخيال إلى دفع مخافة أو الوصول إلى لذيذ فتح له الفكر بابا من الحيلة ، أو هيأ له وسيلة لاستعمال القوة . فقام التناهب مكان التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق ، وصار الضابط لسيرة الإنسان إما الحيلة وإما القهر .

هل وقف الهوى بالإنسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية وتجالد أفراده طمعا فى وصول كل إلى مايظنه غاية مطلبه وإن لم تكن له غاية ؟ كلا ! ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية ، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما ، حسبما يمتد إليه نظره ، وقد بلغت هذه الشهوة حدا من الأنفس كادت تتغلب على جميع الشهوات ،

وأخذت لذة الوصول إليها من الأرواح مكانا كاد لاتصعد إليه (١) سائر اللذات ، وهي من أفضل العوامل في إحراز الفضائل ، وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم ، لو صرفت فيما سيقت لأجله ، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التي أشرنا إليها من التفاوت في مراتب الإدراك والهمة والعزيمة ، حتى خيل لكثير من العقلاء أن يسعى إلى إعلاء منزلته في القلوب بإخافة الآمن (٢) وإزعاج الساكن ، وإشعار القلوب رهبة المخافة لاتهيب الحرمة .

هل يمكن مع هذا أن يستقيم أمر جماعة بني نظامهم وعلق بقاؤهم في الحياة على تعاونهم ورفد بعضهم بعضا في الأعمال ؟ أو لاتكون هذه الأفاعيل السابق ذكرها سببا في تفانيهم ؟ لاريب أن البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال ، فلا بد للنوع الإنساني في حفظ بقائه من المحبة أوماينوب منابها .

لجأ بعض أهل البصيرة في أزمنة مختلفة إلى العدل ، وظنوا كما

(١) الأصل أن يقال : لاتكاد تصعد إليه الخ أو كاد أن لاتصعد إليه

(٢) يحتمل أن تكون الكلمة « الآمن » اسم فاعل وهو المناسب لما كان بعده . وأن تكون مصدراً بمعناه وهو ظاهر نسخة المؤلف إذ ليس فيها علامة المد

ظن بعض العارفين ونطق به فى كلمة جليلة « إن العدل نائب المحبة »
نعم لا يخلو القول من حكمة ، ولكن من الذى يضع قواعد العدل
ويحمل الكافة على رعايتها ؟ قيل ذلك هو العقل ، فكما كان الفكر
والذكر والخيال ينابيع الشقاء ، كذلك تكون وسائل السعادة
وفيها مستقر السكينة ، وقد رأينا أن اعتدال الفكر ، وسعة العلم
وقوة العقل ، وأصالة الحكم ، تذهب بكثير من الناس إلى ما وراء
حجب الشهوات ، وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف ، فيعرفون لكل
حق حرمته ، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى ، وقد جاء
منهم أفراد فى كل أمة وضعوا أصول الفضيلة وكشفوا وجوه
الرذيلة ، وقسموا أعمال الإنسان إلى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته
وهو ما يجب اجتنابه ، وإلى ما قد يشق احتماله ، ولكن تسر مغبته
وهو ما يجب الأخذ به ، ومنهم من أنفق فى الدعوة إلى رأيه نفسه
وماله ، وقضى شهيد إخلاصه فى دعوة قومه إلى ما يحفظ نظامهم ،
فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل ، وعلى أهل
السلطان أن يحملوا الكافة على رعايتها ، وبذلك يستقيم أمر
الناس .

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ، ولكن هل سمع فى سيرة
الإنسان وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم

لرأى العاقل لمجرد أنه الصواب ؟ وهل كفى فى إقناع جماعة منه كشعب أو أمـــة قول عاقلهم : إنهم مخطئون وإن الصواب فيما يدعوهم إليه ؟ وإن أقام على ذلك من الأدلة ماهو أوضح من الضياء ، وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟ كلا ! ! لم يعرف ذلك فى تاريخ الإنسان ولا هو مما ينطبق على سنته ، فقد تقدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الإدراك ، وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقل والتقارب فى الأصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل إلا كما يعرف من أمر الجاهل ، ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل فمجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعا ولا يرد طمأنينة ، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم أنه أرفع من واضعها ، فيذهب بالناس مذهب شهواته فتذهب حرمتها ويتهدم بناؤها ، ويفقد ما قصد بوضعها .

أضف إلى ما سبق من نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعوراً هو ألصق بالغريزة البشرية وأشد لزوما لها ، كل إنسان مهما علا فكره وقوى عقله ، أو ضعفت فطنته وانحطت فطرته ، يجد من نفسه أنه مغلوب لقوة أرفع من قوته ، وقوة ما أنس منه الغلبة عليه مما حوله وأنه محكوم بإرادة تصرف وتصرف ما هو فيه من العوالم

فى وجوه ربما لا تعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرق إليها إرادة المختارين .

تشعر كل نفس أنها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ، ولاسبيل لها إلا الطريق التى حددت لنوعها وهى طريق النظر ، فذهب كل فى طلبها وراء رائد الفكر . فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات لكثرة نفعها أو شدة ضررها ، ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب لظهور أثرها ، ومنهم من حجبته الأشجار والأحجار لاعتبارات له فيها ، ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة تتماثل فى أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الأنواع فجعل لكل نوع إلهاً .

ولكن كلما رق الوجدان ولطفت الأذهان ونفذت البصائر ، ارتفع الفكر وجلت النتائج ، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك إلى معرفة هذه القدرة الباهرة ، واهتدى إلى أنه قدرة واجب الوجود .

غير أن من أسرار الجبروت ما غمض عليه فلم يسلم من الخبط فيه ثم لم يكن له الميزة الفائقة فى قومه مايحملهم على الاهتداء بهديه فبقى الخلاف ذائعا والرشد ضائعا .

اتفق الناس فى الإذعان لما فاق قدرهم وعلا متناول استطاعاتهم ، لكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة إلى الإذعان له اختلافا كان

أشد أثرا فى التقاطع بينهم وإثارة أعاصير الشقاق فيهم ، من اختلافهم فى فهم النافع والضار لغلبة الشهوات عليهم .

إن كان الإنسان قد فطر على أن يعيش فى جملة ولم يمنح مع تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلا من الإلهام الهادى إلى ما يلزم لذلك ، وإنما ترك إلى فكره يتصرف به على نحو ما سبق ، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها إلى معرفته ، ولم يفض عليه مع هذا الشعور عرفانه (١) بذات ذلك القاهر ولا صفاته . وإنما ألقى فى مطارح النظر ، تحمله الأفكار فى مجاريها ، وترمى به إلى حيث يدرى ، وفى كل ذلك الويل على جامعته ، والخطر على وجوده ، فهل منى هذا النوع بالنقص ورزىء بالقصور على مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود ؟ نعم هو كذلك ، لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه .

الإنسان عجيب فى شأنه : يصعد بقوة عقله إلى أعلى مراتب

---

(١) لعل الأصل « عرفان » فإن فى إضافة العرفان المنفى إلى المنفى عنه إثباتاً له فإن الأصل فى مثل هذه الإضافة الملك ومافى معناه ، وهذا جمع بين النفى والإثبات كما بينه الإمام عبد القاهر فى دلائل الإعجاز وهو ظاهر بنفسه لمن تأمله والناس عنه غافلون .

الملكوت ، ويطاول بفكره أرفع معالم الجبروت(١) ، ويسامى بقوته مايعظم عن أن يسامى من قوى الكون الأعظم ، ثم يصغر ويتضاءل وينحط إلى أدنى درك من الاستكانة والخضوع متى عرض له أمرما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ، ذلك لسر عرفه المستبصرون واستشعرته نفوس الناس أجمعين .

من ذلك الضعف قيد إلى هداه ، ومن تلك الضعة أخذ بيده إلى شرف سعادته ، أكمل الواهب الجواد لجملته ما اقتضت حكمته فى تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده (٢) ، وكما جاد على كل شخص بالعقل المصرف للحواس ، لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد ، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء ، وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء ، وأحفظ لنظام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالإجماع — من عليه بالنائب الحقيق عن المحبة ، بل الراجع بها إلى النفوس التى أقفرت منها ،

(١) « الملكوت » صيغة مبالغة للملك ولا يطلق إلا على ماللّه تعالى منه دون ملك البشر ومثله الرحموت والرهبوت والجبروت ، وهذا من الجبر وهو إصلاح الكسر ، وللملكوت والجبروت معنى آخر فى اصطلاح الصوفية يراجع فى تعريفات السيد الجرجانى وغيرها .

(٢) أى أكمل للمجموع مالا يصل إليه كسب الأفراد مما يفضل به النوع غيره وهو الوحى الذى هو له كالعقل للأفراد .

لم يخالف سنته فيه ، مع بناء كونه على قاعدة التعليم والإرشاد ، غير أنه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه وهى جهة الخضوع والاستكانة ، فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين ، وميزهم من بينها بخصائص أنفسهم لا يشركهم فيها سواهم ، وأيد ذلك زيادة فى الإقناع بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذى الطامح ، ويذل الجامح ، ويصدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه .

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بمالا مندوحة عن الإذعان له ، ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك ، والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضول والفاضل ، فيكون الإذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى .

يعلمونهم ماشاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما أراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته ـ وأولئك هم الأنبياء والمرسلون ـ فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الإنسان ومن أهم حاجاته فى بقائه ، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص نعمة أتمها الله (لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) وسنتكلم على وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد .

إمكان الوحي

الكلام في إمكان الوحي يأتي بعد تعريفه لتصور المعنى الذي يراد منه ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر فيفهم معنى المصدر نفسه . ولا يعنينا ما تثيره الألفاظ في الأذهان . ولنذكر من اللغة ماينا سبه ، يقال . وحيت إليه وأوحيت - إذا كلمته بما تخفيه عن غيره والوحي مصدر من ذلك ، والمكتوب والرسالة ، وكل ما ألقيته إلى غيرك ليعلمه . ثم غلب فيما يلقى إلى الأنبياء من قبل الله . وقيل : الوحي إعلام في خفاء ، ويطلق ويراد به الموحى .

وقد عرفوه شرعاً : أنه إعلام الله تعالى لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه . أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه (١) أو بغير صوت . ويفرق بينه وبين الإلهام بأن الإلهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق إلى ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو ، أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور .

---

(١) كصلصلة الجرس أو كلام الملك ، كما ورد في الحديث الثاني من صحيح البخاري اهـ من حاشية نسخة المؤلف

أما إمكان حصول هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ماغاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل ، فلا أراه مما يصعب إدراكه إلا على من لايريد أن يدرك ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لاتفهم . نعم يوجد فى كل أمة وفى كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم إلى ماوراء سواحل اليقين ، فيسقطون فى غمرات من الشك فى كل مالم يقع تحت حواسهم الخمس ، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها كما سبقت الإشارة إليه ، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا إلى ماهو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان ، فينسون العقل وشئونه ؛ وسره ومكنونه ، ويجدون فى ذلك لذة الإطلاق عن قيود الأوامر والنواهى بل عن محابس الحشمة التى تضمهم إلى التزام مايليق ، وتحجزهم عن مقارفة مالا يليق ، كما هو حال غير الإنسان من الحيوان ، فإذا عرض عليهم شىء من الكلام فى النبوات والأديان ، وهم من أنفسهم هام بالإصغاء ، دافعوه بما أوتوا من الاختيار فى النظر ، وانصرفوا عنه ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، حذر أن يخالط الدليل أذهانهم ، فيلزمهم العقيدة ، وتتبعها الشريعة ، فيحرموا لذة ماذاقوا ومايحبون أن يتذوقوا ، وهو مرض فى الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم إن شاء الله .

قلت : أى استحالة فى الوحى وأن ينكشف لفلان مالا ينكشف لغيره من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم أن ذلك من قبل واهب الفكر ، ومانح النظر ، متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة .

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة يعلو بعضها بعضاً ، وأن الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى إلا على وجه من الإجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط ، بل لابد معه من التفاوت فى الفطر التى لامدخل فيها لاختيار الإنسان وكسبه ، ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهى عند من هو أرقى منه ، ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك إلى مالا يحصره العدد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس ما يرى البعيد عن صغارها(١) قريباً فيسعى إليه ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ماصار إليه كأنه من المعروف الذى لاينازع ، والظاهر الذى لا يجاحد ، فإذا أنكره منكر ثاروا عليه . ثورتهم فى بادىء الأمر على من دعاهم إليه ، ولا يزال هذا الصنف من الناس ـ على قلته ـ ظاهراً فى كل أمة إلى اليوم .

فإذا سلم « ولا محيص عن التسليم » ما أسلفنا من المقدمات .

(١) أى يرى البعيد عن صغار النفوس والهمم قريباً عنده

فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها عند الوصول إليها ، أن لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفترة ماتستعد به من محض الفيض الإلهى لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهى من الإنسانية إلى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان مالم يصل غيرها إلى تعقله أو تحسسه بعصا الدليل والبرهان ، وتتلق عن العليم الحكيم ، مايعلو وضوحا على ما يتلقاه أحدنا عن أساتذة التعليم ، ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم ماعلمت ودعوة الناس إلى ما حملت على إبلاغه إليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله فى كل أمة ، وفى كل زمان على حسب الحاجة ، يظهر برحمته من يختصه بعنايته ، ليفى للاجتماع بما يضطر إليه من مصلحته ، إلى أن يبلغ النوع الإنسانى أشده ، وتكون الأعلام التى نصبها لهدايته إلى سعادته كافية فى إرشاده ، فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة ، كما سنأتى عليه فى رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم .

أما وجود بعض الأرواح العالية ـ وهم الملائكة المكرمون ـ وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية ، فما لااستحالة فيه بعد ما عرفنا من أنفسنا ، وأرشدنا إليه العلم ـ قديمه وحديثه ـ من اشتمال الوجود على ما هو ألطف من المادة وإن غيب عنا ، فأى مانع من أن يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا لشىء من العلم الإلهى ،

وأن يكون لنفوس الأنبياء إشراف عليه ، فإذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الإذعان بصحته (١) .

أما تمثل الصوت وأشباح لتلك الأرواح فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقدعهد عند أعداء الأنبياء مالا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم ، فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل إلى درجة المحسوس فيصدق المريض فى قوله إنه يرى ويسمع ، بل يجالد ويصارع ، ولا شىء من ذلك فى الحقيقة بواقع ، فإن جاز التمثل فى الصور المعقولة ولا منشأ لها إلا فى النفس ، وأن ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية ، وأن يكون ذلك لها عند ما تنزع عن عالم الحس ، وتتصل بحظائر القدس ، وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد فى مزاج غيرهم ؟ وغاية ما يلزم عنه أن يكون لعلاقة أرواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك

---

(١) قال فى الأساس : أذعن له « سلس وانقاد » وأذعن فلان بحق : أقر به اهـ وكلا المعنيين يصح هنا ولكنه فى الأول أظهر .

العلاقة من سواهم[1] وهو مما يسهل قبوله بل يتحتم ، لأن شأنهم فى الناس أيضا غير الشئون المألوفة ، وهذه المغايرة من أهم ما امتازوا به ، وقام منها الدليل على رسالتهم . والدليل على سلامة شهودهم وصحة ما يحدثون عنه : أن أمراض القلوب تشفى بدوائهم ، وأن ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى أممهم التى تأخذ بمقالهم ، ومن المنكر فى البديهة : أن يصدر الصحيح من معتل ، ويستقيم النظام بمختل .

أما أرباب النفوس العالية ، والعقول السامية ، من العرفاء ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم

---

(١) بل ثبت بتجارب الأطباء ـ حتى الماديين منهم ـ أن بعض هؤلاء المرضى يخبر ببعض المغيبات وبالأمور قبل وقوعها فيصدق ، قال مريض منهم ، كثرت أخباره فى ذلك ، وكان بمصر : إن فلانا ـ من أقاربه ـ فى الإسكندرية خرج من داره إلى محطتها قاصداً السفر إلى مصر لعيادتى . . ثم أخبر أنه وصل إلى محطتها ودخل القطار « ثم شغله الطبيب بأمور تهمه حتى إذا ما جاء موعد وصول قطار الإسكندرية إلى مصر قال المريض : قد وصل القطار ونزل فلان منه . . . ها هو ذا خارج من المحطة وركب مركبة تحمله إلى هنا . ثم قال : هاهو ذا قد وصل ، فإذا هو بالباب وقد دخل . فالروح التى تدرك مثل هذا ـ وهو غائب عنها ـ تعطينا دليلا حسياً على إمكان إدراك روح أكمل منها لعلوم من الغيب أعلى مما أدركته هى .

أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الأنس بما يقارب تلك الحال من النوع أو الجنس ، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على كل شىء فى عالم الغيب ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال لا تنكر عليهم لتحقيق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم . ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف . ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه . ظهور الأثر الصالح منهم ، وسلامة أعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فكرهم من ينكره العقل الصحيح أو يمجه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم . المتلألىء فى بصائرهم ، إلى دعوة من يحف بهم إلى ما فيه خير العامة ، وترويح قلوب الخاصة ، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ويسوء مآلهم ، ومآل من غرروا به ، ولا يكون لهم إلا سوء الأثر فى تضليل العقول وفساد الأخلاق ، وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، إلا أن يتداركهم الله بلطفه ، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الإقرار بإمكان ما أنبأوا به وبوقوعه إلا حجاب من العادة وكثيراً ماحجب العقول حتى عن إدراك أمور معتادة .

وقوع الوحى والرسالة

الدليل على رسالة نبى وصدقه فيما يحكى عن ربه ظاهر للشاهد الذى يرى حاله ، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان ، كما سلف فى الوجه الأول من الكلام على الرسالة ، وأما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر وهو كما تبين فى علم آخر : رواية خبر عن مشهود (١) من جماعة يستحيل تواطؤهم عن الكذب ، وآيته : قهر النفس على اليقين بما جاء فيه ، كالإخبار بوجود مكة ، أو بأن للصين عاصمة تسمى « بكين » .

وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ، ومرجع كل ذلك إلى العدد ، وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر .

لا نزاع بين العقلاء فى أن هذا النوع من الأخبار يحصل اليقين

---

(١) قوله « مشهود » أى شىء شهده المخبرون ، وحضروا وقوعه فكان معلوما بالحس قطعا ، كإخبار من سمعوا قولا بأنهم سمعوه ، ومنه تواتر القرآن وبعض الأخبار دون كتب أهل الكتاب ، فإنه ليس عندهم أسانيد متصلة فى نقلها لا متواترة ولا آحادية .

بالمخبر به ، وإنما النزاع فى اعتبارات تتعلق به ، ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر ، كإبراهيم وموسى وعيسى . ومما جاء به الخبر : أنهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقوى سلطانا ولا بالأكثر مالا ، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم مادعوا إليه ، وغاية الأمر : أنهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس . وتنبو عنهم الأنظار ، ومع ذلك واستحكام السلطان لغيرهم ووفرة المال لديه ، واستعلائه عليهم بما كسب من العلم ، قاموا بدعوة الناس إلى الله على رغم الملوك وأجنادهم ، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم ، وادعوا أنهم يبلغون عن خالق السموات والأرض ما أراد شرعه للناس ، وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة ، ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطر ، وكان الخير لأممهم فى اتباع ما جاءوا به ، حالفتهم القوة واحتضنتهم السعادة ماكانوا قائمين عليها ، ورزأهم الضعف وغالبهم الشقاء ما انحرفوا عنها وخلطوا فيها ، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدى لا يصلح معه فى العقل أن يكونوا كاذبين فى حديثهم عن الله ، ولا فى دعواهم أنه كان يوحى إليهم ما شرعوا للناس ، على أن من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر فى العقول ، والباطل لا بقاء له إلا فى الغفلة عنه ؛ كالنبات الخبيث فى الأرض

الطيبة ينبت بإهمالها ، وينمو (١) بإغفالها ، فإذا لامستها عناية يد الزارع غلبه الخصب وذهب به الزكاء ، ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الأنبياء قامت فى العالم الإنسانى ما شاء الله مما قدر لها مقام سائر قواه ، مع كثرة المعارضين ، وقوة سلطان المغالبين ، فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة ، وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائما فى خلال ما ألحق بها المبتدعون .

وأما بقية الرسل مما يجب علينا الإيمان بهم (٢) فيكفى فى إثبات نبوتهم إثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم فقد أخبرنا برسالتهم وهو الصادق فيما بلغ به ، وسنأتى على الكلام فى رسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فى باب على حدته إن شاء الله .

---

(١) نما ينمو لغة ضعيفة فى نمى ينمى ، شاع استعمالها فى عصرنا .

(٢) أى بالتفصيل ، وهم الذين صرح القرآن برسالتهم وذكرهم بأسمائهم ، وعدهم ٢٣ أو ٢٤ أو ٢٥ خلاف .

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم فى حاجة العالم الإنسانى إلى الرسل أنهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص ، وأن بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية ، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الإنسان عن بقية الكائنات من جنسه
نعم واهب الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه
— ولكنها حاجة روحية ، وكل مالامس الحس منها فالقصد فيه إلى الروح وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة ، أو تقويم ملكاتها أو إيداعها مافيه سعادتها فى الحياتين .

وأما تفصيل طرق المعيشة والحذق فى وجوه الكسب ، وتطاول شهوات العقل إن درك ماأعد للوصول إليه من أسرار العلم ، فذلك مما لادخل للرسالات فيه إلا من وجه العظة العامة والإرشاد إلى الاعتدال فيه ، وتقرير أن شرط ذلك كله أن لايحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون إلها واحدا قادرا عالما حكيما متصفا بما أوجب الدليل أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات إليه فى أنها مخلوقة له وصنع قدرته ، وإنما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال ، وشرطه أن لاينال شيء من تلك

الأعمال السابقة أحدا من الناس بشر فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ماحدد فى شريعتها .

يرشدون العقل إلى معرفة الله وما يجب أن يعرف من صفاته ، ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان (١) على وجه لايشق عليه الاطمئنان إليه(٢) ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة ، يجمعون كلمة الخلق على إله واحد لافرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده(٣) ، وينهضون نفوسهم إلى التعلق به فى جميع الأعمال والمعاملات ، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات ، تذكرة لمن ينسى ، وتزكية مستمرة لمن يخشى ، تقوى ما ضعف منهم ، وتزيد المستيقن يقينا .

يبينون للناس مااختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ،

(١) هو أن لايبحث عن كنه ذاته وصفاته كما تقدم

(٢) لأنه لايصل إلى المستحيل الذى يتوقف التسليم به على نبذ العقل الذى هو مشرق الإيمان

(٣) أى يدعونه ويتقربون إليه بما شرع لهم من الدين لابوسائط من الخلق تقربهم اليه كحجاب الملوك ووزرائهم

ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة (١) .

يعودون بالناس إلى الألفة ، ويكشفون لهم سر المحبة ، ويلفتونهم إلى أن فيها انتظام شمل الجماعة ، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها (٢) قلوبهم ، ويشعروها أفئدتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وإن كان لا يغفل حقه ، وأن لا يتجاوز فى الطلب حده ، وأن يعين قويهم ضعيفهم ، ويمد غنيهم فقيرهم ، ويهدى راشدهم ضالهم . ويعلم عالمهم جاهلهم .

يضعون لهم بأمر الله حدوداً عامة يسهل عليهم أن يردوا إليها أعمالهم ، كاحترام الدماء البشرية إلا بحق مع بيان الحق الذى تهدر له ، وحظر تناول شىء مما كسبه الغير إلا بحق ، مع بيان الحق الذى يبيح تناوله ، واحترام الأعراض ، مع بيان ما يباح وما يحرم من الأبضاع ، ويشرعون لهم مع ذلك أن يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة والوفاء بالعقود والمحافظة على العهود (٣) والرحمة بالضعفاء والإقدام على نصيحة الأقوياء ، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء (٤) .

(١) أى كالزكاة (٢) أى المحبة
(٣) ومنها المعاهدات الدولية مع الأجانب
(٤) أى لافرق فيه بين مسلم وكافر وقوى وضعيف وقريب وبعيد .

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية ، إلى طلب الرغائب السامية ، آخـــذين فى ذلك كلـه بطرف من الترغيب والترهيب والإنذار والتبشير ، حسبما أمرهم الله جل شأنه .

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم ، وما يعرضهم لسخطه عليهم ، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده ، وأخذ بأوامره وتجنب الوقوع فى محظوراته .

يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به[1] مما لو صعب على العقل اكتناهه ، لم يشق عليه الاعتراف بوجوده .

بهذا تطمئن النفوس ، وتثلج الصدور ، ويعتصم المرزوء بالصبر انتظاراً لجزيل الأجر ، أو إرضاء لمن بيده الأمر ، وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع الإنسانى لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم فى حله إلى اليوم[2] .

---

(١) كالملائكة والجن وأحوال الآخرة .

(٢) يعنى مشكل العمال وما نشأ عنه من الاشتراكية والفوضوية بأنواعها وأوربة كلها فى حيرة من تلافى هـذا الأمر ، ويسهل تلافيه بالدين الإسلامى الذى فرض الزكاة وأمر بالصدقة ، وهدى الأنفس إلى الرضا بما قسم لها ، طلباً لسعادة الآخرة مع بذل الجهد فى السعى .

ليس من وظائف الرسل ما هو عمل المدرسين ومعلمي الصناعات فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ . ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ولا بيان ما اختلف من حركاتها . ولا ما استكن من طبقات الأرض . ولا مقادير الطول فيها والعرض . ولا ما تحتاج إليه النباتات في نموها . ولا ما تفتقر إليه الحيوانات في بقاء أشخاصها وأنواعها . وغير ذلك مما وضعت له تلك العلوم وتسابقت في الوصول إلى دقائقه الفهوم . فإن ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة . هدى الله إليه البشر بما أودع فيهم من الإدراك . يزيد من سعادة المحصلين . ويقضي فيه بالنكد على المقصرين ، ولكن كانت سنة الله في ذلك أن يتبع طريقة التدرج في الكمال ، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الإجمال بالسعي فيه وما يكفل التزامه الوصول إلى ما أعد الله له الفطر الإنسانية من مراتب الارتقاء .

وأما ما ورد في كلام الأنبياء من الإشارة إلى شيء مما ذكرنا في أحوال الأفلاك أو هيئة الأرض : فإنما يقصد منه النظر إلى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعه ، أو توجيه الفكر إلى الغوص لإدراك أسراره وبدائعه ، ولغتهم عليهم الصلاة والسلام في مخاطبة أممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون وإلا ضاعت الحكمة في إرسالهم ،

ولهذا قد يأتى التعبير الذى سيق إلى العامة بما يحتاج إلى التأويل والتفسير عند الخاصة ، وكذلك ما وجه إلى الخاصة يحتاج إلى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة ، وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم (١) .

على كل حال لايجوز أن يقام الدين حاجزاً بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الإمكان . بل يجب أن يكون الدين باعثاً لها على طلب العرفان ، مطالباً لها باحترام البرهان ، فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ، ولكن مع التزام القصد ، والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد ، ومن قال غير ذلك فقد جهل الدين ، وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب العالمين .

(١) أى إذا كان القسم الأول الذى يحتاج إلى التأويل والتفسير قليلا كما تدل عليه كلمة (قد) فهذا أقل منه : وأكثر كلامهم يفهمه جميع العارفين بلغتهم على تفاوت عظيم فى الفهم يرفع بعضهم درجات فى العلم .

اعتراض مشهور

قال قائل : إن كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر ، وكمالا لنظام اجتماعهم ، وطريقا لسعادتهم الدنيوية والأخروية ، فما بالهم لم يزالوا أشقياء ، عن السعادة بعداء ، يتخالفون ولا يتفقون ، يتقاتلون ولا يتناصرون ، يتناهبون ولا يتناصفون ، كل يستعد للوثبة ، ولا ينتظر إلا مجىء النوبة ، حشو جلودهم الظلم ، وملء قلوبهم الطمع ؛ عد أهل كل ذى دين دينهم حجه لمقارعة من خالفهم فيه ، واتخذوا منه سبباً جديداً للعداوة والعدوان فوق ماكان من اختلاف المصالح والمنافع ، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم وتختلف مذاهبهم فى فهمه ، وتتفارق عقولهم فى عقائدهم ، ويثور بينهم غبار الشر ، وتتشبث أهواؤهم بالفتن فيسفكون دماءهم ، ويخربون ديارهم إلى أن يغلب قويهم ضعيفهم ، فيستقر الأمر للقوة لا للحق والدين ، فهاهو ذا الدين الذى تقول : إنه جامع الكلمة ورسول المحبة ، كان سبباً فى الشقاق ومضرما للضغينة فما هذه الدعوى وما هذا الأثر ؟

نقول فى جوابه : نعم كل ذلك قد كان ، ولكن بعد زمن الأنبياء وانقضاء عهدهم ؛ ووقوع الدين فى أيدى من لا يفهمه أو يفهمه

ويغلو فيه . أو لا يغلو فيه ، ولكن لم يمتزج حبه بقلبه ، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء أنفسهم ، أو الخيرة من تبعتهم ، وإلا فقل لنا : أى نبي لم يأت أمته بالخير الجم ، والفيض الأعم . ولم يكن دينه وافياً بجميع ما كانت تمس إليه حاجتها ، فى افرادها وجملتها ؟

أظن أنك لا تخالفنا فى أن الجمهور الأعظم من الناس - بل الكل إلا قليلا — لا يفهمون فلسفة أفلاطون ، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق أرسطو ، بل لو عرض أقرب المعقولات إلى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما أدركوا منها إلا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ، ولا فى إصلاح العمل ، فاعتبر هـــذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها . ثم انصب نفسك واعظا بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع إليها ، فأى الطرق أقرب إليك فى مهاجمة شهواتها وردها إلى الاعتدال فى رغائبها ؟

من البديهى أنك لا تجد الطريق الأقرب فى بيان (١) مضار الإسراف فى الرغب ، وفوائد القصد فى الطلب ، وما ينحو نحو ذلك مما لا يصل إليه أرباب العقول السامية إلا بطويل النظر ، وإنما تجد أقصد الطرق وأقومها أن تأتى إليه من نافذة الوجدان المطلة على

(١) قوله فى بيان الخ : هو المفعول الثانى لقوله « لا تجد » .

سر القهر المحيط به من كل جانب ، فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ماوهب ، الغالب عليه فى أدنى شئونه إليه ، المحيط بما فى نفسه ، الآخذ بأزمة همه ، وتسوق إليه من الأمثال فى ذلك مايقرب إلى فهمه ، ثم تروى له ماجاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ، ومن سير السلف فى ذلك الدين مافيه أسوة حسنة ، وتنعش روحه بذكر رضاء الله عنه إذا استقام ، وسخطه عليه إذا تقحم ، عند ذلك يخشع منه القلب ، وتدمع العين . ويستخذى الغضب ، وتخمد الشهوة ، والسامع لم يفهم من ذلك كله إلا أنه يرضى الله وأولياءه إذا أطاع ، ويسخطهم إذا عصى ، ذلك هو المشهود من حال البشر غابرهم وحاضرهم ، ومنكره يسم نفسه أنه ليس منهم .

كم سمعنا أن عيوناً بكت ، وزفرات صعدت ، وقلوبا خشعت لواعظ الدين ، لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الأدب وزعماء السياسة ؟ متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك ؟ وهذا أمر لم يعهد فى سير البشر ، ولا ينطبق على فطرهم ، وإنما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد (١) ولاقيام الأمرين إلا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى

(١) التقاليد هى العادات الموروثة . قاله المؤلف فى الدرس

العوامل فى أخلاق العامة ، بل والخاصة ، وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم .

قلنا : إن منزلة النبوات من الاجتماع هى منزلة العقل من الشخص أو منزلة العلم المنصوب على الطريق المسلوك ، بل نصعد إلى مافوق ذلك ونقول : منزلة السمع والبصر ، أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ، وبين الطريق السهلة السلوك والمعابر الوعرة ؟ ومع ذلك فقد يسىء البصير استعمال بصره فيتردى فى هاوية يهلك فيها وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه — يقع ذلك لطيش أو إهمال أو غفلة أو لجاج وعناد . وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شىء ، ويعلم ذلك الباغى فى رأيه من أهل الشر ، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله — كذلك الرسل عليهم السلام أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة فمن الناس من اهتدى بها فانتهى إلى غايات السعادة ، ومنهم من غلط فى فهمها او انحرف عن هديها فانكب فى مهاوى الشقاء — فالدين هاد ، والنقص يعرض لمن دعوا إلى الاهتداء به ، ولا يطعن نقصهم فى كماله واشتداد حاجتهم إليه (٢ : ٢٦ يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين) .

ألا إن الدين مستقر السكينة ، ولجأ الطمأنينة ، به يرضى كل بما قسم له ، وبه يدأب العامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس إلى أحكام السنن العامة فى الكون ، وبه ينظر الإنسان إلى من فوقه فى العلم والفضيلة ، وإلى من دونه فى المال والجاه ، اتباعا لما وردت به الأوامر الإلهية .

الدين أشبه بالبواعث الفطرية الإلهامية منه بالدواعى الاختيارية ، الدين قوة من أعظم قوى البشر ، وإنما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ، وكل ماوجه إلى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه ، الناصبين أنفسهم منصب الدعوة إليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه ، وما عليهم فى إبلاغ القلوب بغيتها منه إلا أن يهتدوا به ، ويرجعوا إلى أصوله الطاهرة الأولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع ، فترجع إليه قوته وتظهر للأعمى حكمته .

ربما يقول قائل : إن هذه المقابلة بين العقل والدين تميل إلى رأى القائلين بإهمال العقل بالمرة فى قضايا الدين . وبأن أساسه هو التسليم المحض ، وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ إلى فهم ما أودعه من معارف وأحكام . فنقول : لوكان الأمر كما عساه أن يقال لما كان الدين علماً يهتدى به ، وإنما الذى سبق تقريره : هو أن العقل

وحده لايستقل بالوصول إلى ما فيه سعادة الأمم بدون مرشد إلهى . كما لا يستقل الحيوان فى إدراك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ، بل لابد معها من السمع لإدراك المسموعات مثلا (١) كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات ، والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله والإذعان لما تكشف له من معتقدات وحدود أعمال .

كيف ينكر على العقل حقه فى ذلك وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منها إلى معرفتها ، وأنها آتية من قبل الله - وإنما على العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدق بجميع ما جاءبه ، وإن لم يستطع الوصول إلى كنه بعضه والنفوذ إلى حقيقته ، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ماهو من باب المحال المؤدى إلى مثل الجمع بين النقيضين ، أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد فإن ذلك مما تتنزه النبوات عن أن تأتى به . فإن جاء ما يوهم ظاهر ذلك فى شىء من الوارد فيها وجب على العقل أن يعتقد أن الظاهر غير مراد . وله الخيار بعد ذلك فى التأويل مسترشداً ببقية ما جاء على لسان

---

(١) قال المؤلف فى الدرس : هذه القضية مهملة تصدق بالبعض فلا ينافضها أن بعض الديدان له حاسة واحدة يدرك بها كل ما يحتاج إلى إدراكه :

من ورد المتشابه فى كلامه . وفى التفويض إلى الله فى علمه . وفى سلفنا من الناجين من أخذ بالأول ومنهم من أخذ بالثانى .

رسالة محمد صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا فى هذه الوريقات أن نلم بتاريخ الأمم عامة وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية ، لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة إلى قارعة تهز عرش الملوك وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم ، وتخفض من أبصارهم المعقودة بعنان السماء (١) إلى من دونهم من رعاياهم الضعفاء وإلى نار تنقض من سماء الحق على أدم الأنفس البشرية لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول ، وصيحة فصحى تزعج الغافلين ، وترجع بألباب الذاهلين . وتنبه المرءوسين إلى أنهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين ، والهداة الضالين والقادة الغارين ، وبالجملة تؤوب بهم إلى رشد يقيم الإنسان على الطريق التى سنها الله له (إنا هديناه السبيل (٢)) ليبلغ بسلوكها كماله ، ويصل على نهجها إلى ما أعد فى الدارين له . ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر إمعان وإنصاف .

(١) ضرب من التمثيل كما هو ظاهر وصرح به المؤلف فى الدرس وكذلك قوله « وإلى نار » وقس على ذلك . (٢) قال المؤلف فى الدرس : المراد بالسبيل والطريق ، هو فطرة الله التى فطر الناس عليها .

كانت دولتا العالم (١) دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب ـ فى تنازع وتجالد مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، وأموال هالكة ، وظلم من الإحن حالكة . ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والإسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالغة حد مالا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء والقواد ورؤساء الأديان من كل أمة ، وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد ، فزادوا فى الضرائب وبالغوا فى فرض الإتاوات حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات أعمالها . وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف وفكر العاقل ، فى الاحتيال لسلب الغافل ، وتبع ذلك أن استولى على تلك الشعوب من ضروب الفقر والذل والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

غمرت مشيئة الرؤساء إرادة من دونهم فعاد هؤلاء كأشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر إليها من ذوى

(١) بيان للكلمة التى استعارها من التاريخ قال فى الدرس وفاتنى وقت الكتابة ذكر دولة الصين فإنها كانت أيضاً ممزقة بالحروب الأهلية ومع التركمان . وسنذكرها فى طبعة ثانية .

الألباب ، ففقد بذلك ، الاستقلال الشخصى ، وظن أفراد الرعايا أنهم لم يخلقوا إلا لخدمة ساداتهم ، وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن فى العجاوات مع من يقتنيها ، ضلت السادات فى عقائدها وأهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ، ولكن بقى لها من قوة الفكر أراداً بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الإلهى الذى يخالط الفطر الإنسانية قد يفتق الغلب التى أحاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التى أسدلت على العقول ، فتهتدى العامة إلى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء أن ينشئوا سحبا من الأوهام ، ويهيئوا كسفا من الأباطيل والخرافات ، ليقذفوا بها فى عقول العامة ، فيغلظ الحجاب ويعظم الرين ، ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم ، وصرح الدين بلسان رؤسائه أنه عدو العقل ، وعدو كل ما يثمره ، إلا ما كان تفسيراً لكتاب مقدس ، وكان لهم فى المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ، ومدد لا ينفد .

هكذا كانت حالة الأقوام ، فى معارفهم ، وذلك كان شأنهم فى معايشهم ، عبيد أذلاء ، حيارى فى جهالة عمياء ، اللهم إلا بعض شوارد من بقايا الحكمة الماضية . والشرائع السابقة ، أوت إلى بعض الأذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر .

ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها بما انقلب من الوضع وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس فى مظنة الطهارة والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة والسلام ، مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه لأول وهلة إلى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى فى العقل والشريعة معاً ، وظهرت مذاهب الإباحيين والدهريين فى شعوب متعددة . وكان ذلك ويلاعليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب .

وكانت الأمة العربيـــة قبائل متخالفة فى النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة فى قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبى نسائها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع ، إلى المعامع ، وزين لها السيئات ، فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حداً صنعوا فيه أصنامهم من الحلوى ثم عبدوها . فلما جاعوا أكلوها ، وبلغوا من تضعضع الأخلاق وهناً قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن أو تنصلا من نفقات معيشتهن ، وبلغ الفحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة فكانت ربط (١) النظام الاجتماعى قد

(١) الربط بضمتين : جمع رباط وهو ما يربط به .

تراخت عقدها فى كل أمة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة (١) .

أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحى إليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التى أظلت رءوس جميع الأمم ؟ نعم كان ذلك ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

* * *

فى الليلة الثانية عشرة (٢) من ربيع الأول عام الفيل « ٢٠ أبريل سنة ٧٥١ من ميلاد المسيح عليه السلام » ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى بمكة . ولد يتيما ، توفى والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال إلا خمس جمال وبعض نعاج (٣) وجارية

(١) يستدرك هنا أن العرب كانوا يفضلون جميع الأمم بصفات وأخلاق كانت سبب ظهور المصلح الأعظم منهم كاستقلال الفكر ، وقوة الإرادة ، والشجاعة والنجدة ، والجود والإيثار ، وحماية الجار إذ لم يستعبدوا لرؤساء دينيين ولاسياسيين . وما ذكر من العيوب فيهم كوأد البنات لم يكن كله فاشياً فى جميع بلادهم وقبائلهم ، وكان زنا الحرائر نادراً ، ويعد من أنكر المنكرات .

(٢) هذا هو المشهور الذى عليه الناس فى تقاويمهم واحتفالاتهم بذكرى المولد النبوى وهو أحد الأقوال . والأصح عند المحدثين أنه ولد فى الليلة التاسعة منه (٣) قيل : خمس . وقيل : تسع .

ويروى أقل من ذلك . وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته أيضاً فاحتضنه جده عبـــد المطلب . وبعد سنتين من كفالته توفى جده فكفله من بعده عمه أبو طالب وكان شهماً كريماً غير أنه كان من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله ، وكان صلى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معا ، وفقر لم يسلم منه الكافل والمكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة عباد الأصنام ، غير أنه مع ذلك كان ينمو ويتكامل بدنا وعقلا ، وفضيلة وأدبا ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه بالأمين : أدب إلهى لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصا مع فقر القوام ، فاكتهل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصون ، رفيعا والقوم منحطون ، وموحداً وهم وثنيون ، سلما وهم شاغبون (١) صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعا على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون .

---

(١) استشهد المؤلف لهـــذا فى الدرس بقصة اختلاف القبائل فى وضع الحجر الأسود يوم بناء الكعبة حتى كادوا يتقاتلون ، واتفاقهم على تحكيمه لأمانته والتزامه الحق وما كان من إصلاحه بينهم بما أرضاهم كلهم .

من السنن المعروفة أن يتيما فقيراً أمياً مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته إلى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ولا سيما إن كان من ذوى قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ولا أستاذ ينبهه . ولا عضد - إذا عزم - يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع إلى مخالفتهم ، إذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده (١) ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بغضت إليه الوثنية من مبدأ عمره فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، وما جاء فى الكتاب من قوله : (ووجدك ضالا فهدى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم ، قبل الخلق العظيم ، حاش لله إن ذلك لهو الإفك المبين ، وإنما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الإخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص ، وطلب السبيل إلى ما هـــدوا إليه من إنقاذ الهالكين ، وإرشاد الضالين . وقد هدى الله نبيه إلى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته .

(١) كأمية بن أبى الصلت ، وزيد بن عمرو بن نفيل

وجد شيئاً من المال يسد حاجته ، وقد كان له فى الاستزادة منه مايرفه معيشته ، بما عمل لخديجة رضى الله عنها فى تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجا لها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ماكان عليه أعاظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا . ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ماكان يسلكه مثله فى الوصول إلى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدمت به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة . ونما فيه حب الانفراد والانقطاع إلى الفكر والمراقبة . والتحنث بمناجاة الله تعالى ، والتوسل إليه فى طلب المخرج من همه الأعظم فى تخليص قومه ، ونجاة العالم من الشر الذى تولاه — إلى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه إليه الإلهام الإلهى (١) ، وتجلى عليه النور القدسى ، وهبط عليه الوحى من المقام العلى . فى تفصيل ليس هذا موضعه .

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه . وكانت

(١) أى من غير شعور منه . ويظن الباحثون فى سيرته ﷺ من غير المسلمين كما يظن كثير من المسلمين أنه ﷺ كان يستشرف للنبوة ويرجوها ولاسيما فى عهد تحنثه فى غار حراء . ولكن الله تعالى يقول : (وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك) أى لكن ألقى إليك رحمة من ربك لم تكن ترجوها ، ويؤيد هذا المعنى خوفه ﷺ على نفسه عندما فجأه ملك الوحى فى حراء كما ثبت فى حديث الصحيحين .

نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفى قناعة بما وجدوه من شرف النسبة إلى المكان ، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف أبرهة الحبشى على ديارهم ، جاء الحبشى لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، وبيتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين فى مفاخرتهم لبنى قومهم . وتقدم بعض جنده فاستاق عدداً من الإبل فيها لعبد المطلب مائتا بعير ، وخرج عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك فاستدناه وسأله حاجته . فقال : هى أن ترد إلى مائتى بعير أصبتها لى ، فلامه الملك على المطلب الحقير ، وقت الخطب الخطير ، فأجابه : أنا رب الإبل ، وأما البيت فله رب يحميه .

هذا غاية ما ينتهى إليه الاستسلام — وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على قريش — فأين من تلك المكانة محمد ﷺ فى حاله من الفقر ، ومقامه فى الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكاً أو يطلب سلطاناً ؟ لا مال لا جاه ، لا جند لا أعوان ، لا سليقة فى الشعر ، لابراعة فى الكتاب ، لا شهرة فى الخطاب ، لا شىء كان عنده مما يكسب المكانة فى نفوس العامة أو يرقى به إلى مقام ما بين الخاصة .

ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذى أعلى رأسه على

الرءوس ، ما الذى سما بهمته على الهمم . حتى انتدب لإرشاد الأمم وكفالته لهم كشف الغمم . بل وإحياء الرمم ؟

ماكان ذلك إلا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم إلى مقوم لما زاغ من عقائدهم ، ومصلح لما فسد من أخلاقهم وعوائدهم ، ماكان ذلك إلا وجدانه ريح العناية الإلهية تنصره فى عمله ، وتمده فى الانتهاء إلى أمله ، قبل بلوغ أجله . ما هو إلا الوحى الإلهى يسعى نوره بين يديه يضىء له السبيل ، ويكفيه مؤنة الدليل ، ما هو إلا الوعد السماوى ، قام لديه مقام القائد والجندى ، أرأيت كيف نهض وحيداً فريداً يدعو الناس كافة إلى التوحيد ، والاعتقاد بالعلى المجيد . والكل ما بين وثنية مفرقة ، ودهرية وزندقة ؟

نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ونبذ معبوداتهم — وفى المشبهين المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم — وفى الثانوية بإفراد إله واحد بالتصرف فى الأكوان ورد كل شىء فى الوجود إليه — أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم إلى ما وراء حجاب الطبيعة ، فيتنوروا سر الوجود الذى قامت به . صاح بذوى الزعامة ليهبطوا إلى مصاف العامة ، فى الاستكانة إلى سلطان معبود واحد ، هو فاطر السموات والأرض ، والقابض على أرواحهم فى هياكل أجسادهم .

تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى ، فبين لهم بالدليل ، وكشف لهم بنور الوحى أن نسبة أكبرهم إلى الله كنسبة أصغر المعتقدين بهم ، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية ، إلى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذى نفس إنسانية ، فى الاستعانة برب واحد يستوى جميع الخلق فى النسبة إليه ، لا يتفاوتون إلا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة .

وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقاليد ، ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا أغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل . واقتطعتهم دون الأمل - مال على قراء الكتب السماوية ، والقائمين على ما أودعته من الشرائع الإلهية ، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدد النكير على المحرفين لها ، الصارفين لألفاظها إلى غير ما قصد من وحيها ، اتباعا لشهواتهم ؛ ودعاهم إلى فهمها ، والتحقق بسر علمها ؛ حتى يكونوا على نور من ربهم .

ولفت كل إنسان إلى ما أودع فيه من المواهب الإلهية . ودعا الناس أجمعين - ذكوراً وإناثاً ، عامة وسادات - إلى عرفان أنفسهم ، وأنهم من نوع خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما ، وبحرية الإرادة فيما يرشده إليه عقله وفكره ، وأن الله عرض

عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان وسلطهم على فهمها والانتفاع بها ، بدون شرط ولا قيد إلا الاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة العادلة ، والفضيلة الكاملة . وأقدرهم بذلك على أن يصلوا إلى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واسطة أحد ، إلا من خصهم الله بوحيه . وقد وكل إليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحاجة إلى أولئك المصطفين إنما هى فى معرفة الصفات التى أذن الله أن تعلم منه ، وليست فى الاعتقاد بوجوده - وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه ، إلا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل . ثم الإنسان بعد ذلك يذهب بإرادته إلى ما سخرت له بمقتضى الفطرة .

دعا الإنسان إلى معرفة أنه جسم وروح ، وأنه بذلك من عالمين متخالفين ، وإن كانا ممتزجين ، وأنه مطالب بخدمتهما جميعا وإيفاء كل منهما ما قررت له الحكمة الإلهية من الحق .

دعا الناس كافة إلى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الأخرى ؛ وبين لهم أن خـــير زاد يتزوده العامل هو الإخلاص لله فى العبادة ، والإخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والإرشاد .

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة ؛ كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا ؛ وإن كان خسران الدنيا وحرمان

الآخرة ، أعداء ما جهلوا ، وإن كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء أنفسهم ، وعبيد شهواتهم ، لا يفقهون دعوته ، ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير أمى مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه إلى نصيحتهم ، والتطاول إلى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف .

لكنه فى فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ؛ ويناضلهم بالدليل ويأخذهم بالنصيحة ؛ ويزجهم بالزجر ؛ وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك بالموعظة الحسنة ؛ كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه عادل فى أمره ونهيه ، أو أب حكيم فى تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ؛ رءوف بهم فى شدته ، رحيم فى سلطته .

ما هذه القوة فى ذلك الضعف ؟ ما هذا السلطان فى مظنة العجز ؟ ما هذا العلم فى تلك الأمية ؟ ما هذا الرشاد فى غمرات الجاهلية ؟ إن هو إلا خطاب الله القادر على كل شىء ، الذى وسع كل شىء رحمة وعلماً ، ذلك أمر الله الصادع ؛ يقرع الآذان ؛ ويشق الحجب ؛ ويمزق الغلف ، وينفذ إلى القلوب على لسان من اختاره لينطق به ، واختصه بذلك - وهو أضعف قومه - ليقيم من هذا الاختصاص برهاناً عليه بعيداً عن الظنة ؛ بريئاً من التهمة ؛ لإتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

أي برهان على النبوة أعظم من هذا ؟ أمي قام يدعو الكاتبين إلى فهم ما يكتبون وما يقرءون ، بعيد عن مدارس العلم ، صاح بالعلماء ليحصوا ما كانوا يعلمون ، في ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ، ناشيء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء . غريب في أقرب الشعوب إلى سذاجة الطبيعة ، وأبعدها عن فهم نظام الخليقة ، والنظر في سننه البديعة ، أخذ يقرر للعالم ، أجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ، ولن يخلص تاركها .

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ أأقول ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم ؟ لا . لا أقول ذلك . ولكن أقول كما أمره الله أن يصف نفسه : إن هو إلا بشر مثلكم يوحى إليه ، نبي صدق الأنبياء ، ولكن لم يأت في الإقناع برسالته بما يلهي الأبصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له واختص العقل بالخطاب ، وحاكم إليه الخطأ والصواب ، وجعل في قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة . وآية الحق الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد) .

القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تطرق إليه الريبة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا . وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال : إنه أنزل عليه ، وأن ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين إلى اليوم .

كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة : نقب على الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التى ألحقتها الأوهام بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها .

حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم ، وما كان بينهم وبين أممهم ، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم المعتقدين برسالاتهم .

آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم ، وما خلطوا فى أحكامهم ، وما حرفوا بالتأويل فى كتبهم ـ وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ماكانت عندحد ما قرره ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها ، أو البعد بها عن الروح

الذى أودعته . ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية ، كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم .

ثم جاء بعد ذلك (١) بحكم ومواعظ وآداب ، تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الهمم انصرافها فى السبيل الأمم (٢) .

نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبار على أنه أرقى الأعصار عند العرب ، وأغزرها مادة فى الفصاحة ، وأنه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة ، وفرسان الخطاب . وأنفس ماكانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء : هو الغلب فى القول ، والسبق إلى إصابة مكان الوجدان من القلوب ، ومقر الإذعان من العقول ، وتفانيهم فى المفاخرة بذلك ، مما لايحتاج إلى الإطالة فى بيانه .

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى صلى الله عليه وسلم ، والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لإبطال دعواه ، وتكذيبه فى الإخبار عن الله ، وإتيانهم فى ذلك على مبلغ

---

(١) هذه البعدية نوعية لا زمانية أو هى كما قال الشاعر :

قل لمن مات ثم مات أبوه ثم من بعد ذاك قد مات جده

(٢) الأمم - بفتح الهمزة والميم الأولى - القريب .

استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطان إلى مناوأته ، والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته . وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته ، وانهالوا بقواهم عليه استكباراً عن الخضوع له ، وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحمية لعقائدهم وعقائد أسلافهم ، وهو مع ذلك يخطىء آراءهم ، ويسفه أحلامهم ، ويحتقر أصنامهم ، ويدعوهم إلى مالا تعهده أيامهم ، ولم تخفق لمثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدى ذلك كله إلا تحديهم بالإتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب أو بعشر سور من مثله (١) وكان فى استطاعتهم أن يجمعوا إليه من العلماء والفصحاء والبلغاء ما شاءوا ليأتوا بشىء من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة .

جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى ، ولجاج القوم فى التعدى ، أصيبوا بالعجز ، ورجعوا بالخيبة ، وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العلى على جميع الأحكام . أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمى أعظم معجزة ؟

---

(١) كان التحدى بعشر سور مثله رداً على الذين قالوا « افتراه » ولذلك وصفها بقوله (مفتريات) ، وقد بينت حكمة هذا العدد فى تفسير الآية من سورة هود .

وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر ، وإنما هو النور المنبعث عن شمس العلم الإلهى . والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى صلوات الله وسلامه عليه ؟

هذا ، وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون ، كالخبر فى قوله (٣٠ : ٢ غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ◦ فى بضع سنين) وكالوعد الصريح فى قوله (٢٤ : ٥٥ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية . وقد تحقق جميع ذلك ، وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته .

ومن الكلام على الغيب فيه : ما جاء فى تحدى العرب به ، واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله ؛ مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها ؛ وانتشار دعوته على لسان الوافدين إلى مكة من جميع أرجائها ، ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها وقصور العلم البشرى عادة عن الإحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة ؛ كالأمة العربية . فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشىء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا ، ومن الصعب ؛ بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه ؛

وشرط كالذي شرطه على نفسه ، لغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الأرض لاتخلو من صاحب قوة مثل قوته (١) وإنما

(١) يشير إلى قوله تعالى (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا — ولن تفعلوا — فاتقوا النار) الخ . فالإخبار بالغيب فيه قوله — « ولن تفعلوا » وكان هذا بعد التصريح بعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله .

قد يقال : إن بعض دعاة الضلال فى بلاد الفرس والهند قد تحدوا مثل هذا التحدى فى بعض ماكتبوه لإثبات ما ادعوه من الوحى إليهم أو الألوهية لأنفسهم ، ولم نعلم أن أحداً تصدى لمعارضتهم . ونقول فى الجواب على تقدير تسليم الدعوى : إن أولئك لم يكونوا أولى شأن يبالى بدعوتهم وتحديهم ، بل من الموسوسين (كالباب والقادياني مسيح الهند الدجال) وكان جل ما جاءوا به من ذلك أشبه باللغو منه بكلام العقلاء أو النبيين ، وما كان لعاقل أن يعارض المجانين ، ولا لبليغ أن يحاكى هذيان المحمومين والمصروعين ، ولا يزال يظهر أمثالهم فى تلك البلاد وغيرها ، ولا يبالى بهم أحد ، ولكن رزق بعضهم الحظوة فى بلاد أعجمية ؟ أتوا فيها بسخافات جنوا بها على العربية ، وما ادعاه بعضهم من إعجاز بعض ماكتبه فهو ليس كتحدى الأنبياء بل كمبالغة بعض الأدباء والشعراء ، كالشيخ أحمد فارس الذى قال فى مقدمة كتابه « الساق على الساق » غلوا فى الفخر به .

ذلك هو الله المتكلم ، والعليم الخبير هو الناطق على لسانه ، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له ، وبلوغ ماحثهم عليه .

= عهد إلى ولدى أن يتحديا أسلوبه وبدقته يطيفا

على أنه يوجد أمثال لتلك الكتب السخيفة ، ولهذا الكتب اللطيفة ولو قيل لهم أو لبعض أشياعهم : إنها مثلها أو أمثل منها فى بابها لأنكروا ومن ذا الذى يبالى بهم وبإقناعهم ، وليس شأن القرآن مع العرب ، ثم مع سائر الأمم كذلك ، وإعجازه من وجوه كثيرة فى نفسه ، وفى كون من جاء به أمياً بلغ الأربعين ، ومن المحال أن يبتكر أحد من البشر فى هذه السن علماً لم يستعد له ، ولم يزاوله . وكل من ذكرنا كانوا متعلمين وهو ﷺ قد جاء بأقصى الغايات من أعلى العلوم ، لم يسبق له اكتساب شىء ما من الاستعداد له لا علوم العقائد ولا الشرائع ولا الحكمة العملية ولا العلمية ، ولا التاريخ وفلسفته ... ولا كان ممتازاً قبله بالبلاغة فى الشعر والخطابة ، ولا الجدل ، ثم جاء هذا الكتاب بالغاية القصوى فى هذه العلوم ، وتلك معجزات كثيرة غير معجزة بلاغته وأسلوبه البديع وغير مافيه من أنباء الغيب . وكانت الدواعى لمعارضته قوية ، فإنه زلزل سلطانهم الدينى والدنيوى . حتى قوضه من أساسه ، ولم يكن لهؤلاء الأدعياء المتأخرين مثل هذا السلطان والتأثير العظيم ، على أن أدهاهم فى الدعاية — وهم البهائية — يخفون كتابهم الذى سموه الأقدس بدلا من التحدى به ، ولو أظهروه لافتضحوا به .

يقول واهم : إن العجز حجة على من عجز . فإن العجز هو حجة الإفحام وإلزام الخصم ، وقد يلتزم الخصم بعض المسلمات عنده فيفحم ، ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره ، فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه ، فلا يفحمه الدليل ، بل يجد إلى إبطاله أقرب سبيل .

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان ، إذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز ، وشتان بين العجزين ، وبعد ما بين وجهتى الاستدلال فيهما ، فإن إعجاز القرآن برهن على أمر واقعى ، وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة ، وقلنا : « القوى البشرية » لأنه جاء بلسان عربى ، وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة ، وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا ، وحال القوم فى العناد كما بينا ، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشىء من مبلغ عقولهم . فلا يعقل أن فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجز عنه العرب أنفسهم ، وتقاصر القوى جميعها عن ذلك ، مع التماثل بين النبى وبينهم فى النشأة والتربية ، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة : دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ، ثم ما ورد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم ،

والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة ، مما يدل على الثقة من أمره ، على ما سبق تعداده من الأمور التى لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن ، وانفساح الأجل ، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة ، لا رجل يعظ وينصح على العادة .

فثبت بهذه المعجزة العظمى ، وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ، ولا يتناوله التبديل . أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله إلى خلقه ، فيجب التصديق برسالته ، والاعتقاد بجميع ماورد فى الكتاب المنزل عليه ، والأخذ بكل ماثبت عنه من هدى وسنة متبعة . وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الأنبياء . فوجب علينا الإيمان بذلك كذلك .

بقى علينا أن نشير إلى وظيفة الدين الإسلامى ، وما دعا إليه على وجه الإجمال ، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة . والسر فى كون النبى صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

الدين الإسلامى أو الإسلام

هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم . وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم ، بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع ، وإنى مجمله فى هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه ، وما سندى فيما أقول : إلا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين .

جاء الدين الإسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحداً متصفا بمادلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية ، كالعلم والقدرة والإرادة وغيرها ، وعلى أنه لايشبهه شىء من خلقه ، وأن لانسبة بينه وبينهم إلا أنه موجدهم ، وأنهم له وإليه راجعون (١١٢ : ١ قل هو الله أحد ٢ الله الصمد ٣ لم يلد ولم يولد ٤ ولم يكن له كفواً أحد) وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ، ولم يشتبهوا فى شىء منها وأن ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين ، وإنما يختص سبحانه من شاء من عباده (١) بما شاء من

---

(١) يعنى الأنبياء .

علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال ، على سنة له في ذلك سنها في علمه الأزلي ، الذي لا يعتريه التبديل ، ولا يدنو منه التغيير ، وحظر على كل ذي عقل أن يعترف لأحد بشيء من ذلك إلا ببرهان ينتهي في مقـــدماته إلى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التي لا تنقص عنه في الوضوح ، بل قد تعلوه . كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معا ، أو وجوب أن الكل أعظم من الجزء مثلا . وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملـــكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا وغاية أمرهم : أنهم عباد مكرمون (١) وأن ما يجريه على أيديهم فإنما هو بإذن خاص وبتيسير خاص في موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف شـــأن الله في شيء من هذا إلا ببرهان كما تقدم .

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب : (١٦ : ٧٨ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون (٢) والشكر عند العرب معروف أنه

---

(١) إشارة إلى قوله تعالى (٢١ : ٢٦ وقالوا : اتخذ الرحمن ولدا سبحانه بل عباد مكرمون) .

(٢) قال المؤلف في الدرس « لعل » في القرآن تعبر دائماً عن الاستعداد ، أي جعل لكم هـــذه الآلات ليعدكم بها للشكر ، أو قال : ليعدكم بشكرها لتحصيل جميع العلوم بها أي وهذا ما خلقت لأجله ، بقرينة « لا تعلمون شيئا ، قال « والأفئدة » العقول أين كان محلها ، سواء أكان الدماغ أو القلب .

تصريف النعمة فيما كان الإنعام بها لأجله — دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بمحض تلك الموهبة . فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها .

وأما ما تتحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا ، وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها . أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه على أنه فوق ماتعرفه من القوى المسخرة لهـــا ، وكان لابد من الخضوع له والرجوع إليه والاستعانة به — فذلك (١) إنما يرد إلى الله وحده ، فلا يجوز أن تخشع إلا له ، ولا تطمئن إلا إليه . وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة ، لا يسوغ لها أن تلجأ إلى أحد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات ، ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين .

اجتثت بذلك جذور الوثنية ، وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل ، أو العبارة واللفظ ، لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة تبع هذا طهارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لا تنفك عن

(١) قوله : «فذلك الخ» الجملة : خبر قوله ، وأما ما تتحير الخ وحاصل المعنى أن الشعور بوجود قوة غيبية فى الكون هو مما أودع فى غرائز البشر ولكن هذه القوة هى لله وحده . فلا يجوز أن يتوجه أحد إلى غيره فيما هو غير معتاد من الأسباب المشتركة بين البشر ، ولو كان نبياً أو ولياً .

تلك العقيدة الباطلة ؛ ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام ، وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم [1] . وارتفع شأن الإنسان . وسمت قيمته بما صار إليه من الكرامة ، بحيث أصبح لايخضع لأحد إلا لخالق السموات والأرض وقاهر الناس أجمعين ، وأبيح [2] لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال إبراهيم (٦ : ٧٠ إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول : (٦ : ١٦٢ إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى [3] لله رب العالمين (١٦٣) لاشريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) .

تجلت بذلك للإنسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت إرادته من

---

(١) ذكر المؤلف فى الدرس هنا مفاسد المنتسبين إلى طرق الصوفية واختلافهم ، فليتذكر من يعلم . (٢) عبر بأبيح للاشارة إلى أن ذلك كان محظوراً عند الأمم السابقة ، فلم يكن يباح لأحد أن يتوجه إلى الله بدون واسطة الرئيس الدينى فيكونوا حنفاء ، والحنيف المائل عن الباطل إلى الحق الملتزم له فمن يتوجه إلى غير الله ليقربه إلى الله ، فليس بحنيف .

(٣) أى إن صلاتى وجميع عبادتى وحياتى وشئونها ومماتى وما بعده كل ذلك لله وحده لا أتوجه فيه إلى مرضاة غيره ، ولا أستعين أحداً على شىء منه استعانة معنوية بل إياه وحده أستعين ، مهتديا بما شرعه من الدين .

القيود التى كانت تعقدها بإرادة غيره ، سواء كانت إرادة بشرية (١) ظن أنها شعبة من الإرادة الإلهية — أو أنها هى — كإرادة الرؤساء والمسيطرين . أو إرادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها . وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء ، والمتكهنة والعرفاء . وزعماء السيطرة على الأسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله . الزاعمين أنهم واسطة النجاة ، وبأيديهم الإشقاء والإسعاد . وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين .

صار الإنسان بالتوحيد عبداً لله خاصة ، حرا من العبودية لكل ماسواه فكان له من الحق ما للحر على الحر . لاعلى فى الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع ، ولاتفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم . ولاتفاضل إلا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ، ولايقربهم من الله إلا طهارة العقل من دنس الوهم ، وخلوص العمل من العوج والرياء ، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين ، وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة . وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ، ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته ، لابعمله وخدمته

(١) قال المؤلف : كإرادة القديسين والكهنة الذين يأتى ذكرهم مرتباً

طالب الإسلام بالعمل كل قادر عليه . وقرر أن لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت (٩٩ : ٧ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره (٨) ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره) (٥٣ : ٣٩ وأن ليس للإنسان إلا ماسعى) وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ماشاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه إلا ما كان ضاراً بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته . أو ما تعدى ضرره إلى غيره . وحدد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة . فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله . واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها . اللهم إلا حقا محترما تصطدم به .

أنحى الإسلام على التقليد . وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس . واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ونسفت ماكان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم (١)

(١) ذكر المؤلف منها فى الدرس ثلاثاً : ١ - احترام المرء لآبائه ومربيه ٢ — اعتقاد عظمة سلفه من رجال الدين ٣ - الحذر من إنكار الناس المحتفين به واعتراضهم عليه إذا حاول أن يخرج عما هم عليه ، أى فمن لم يحترم نفسه ، واستقلال فكره ، ويمرن نفسه على الأخذ بما يعتقد أنه الحق ، وإن خالف الآباء والمعلمين والأحيـــاء والأموات غير المعصومين من الخطأ ، فلا يمكنه أن ينطلق من قيود التقليد ، وسيأتى فى كلامه ما يهدم تلك القواعد والأركان .

صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته . وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها . كلما نفذ إليه شعاع من نور الحق . وخلصت إليه هينمة من سدنة هياكل الوهم « نم » فإن الليل حالك . والطريق وعرة ، والغاية بعيدة . والراحلة كليلة ، والأزواد قليلة » .

علا صوت الإســـلام على وساوس الطغام ، وجهر بأن الإنسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والأعلام – أعلام الكون ودلائل الحوادث – وإنما المعلمون منبهون ومرشدون وإلى طريق البحث هادون .

صرح فى وصف أهل الحق بأنهم (٣٩ : ١٨ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) فوصفهم بالتمييز بين ما يقال ، من غير فرق بين القائلين ، ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا مالم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم يخبرونهم كما يشاءون ، ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون .

صرف القلوب عن التعلق بما كان عليه الآباء ، وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ،

ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ، ولا مسميا لعقول على عقول ولأذهان على أذهان ، وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية ، واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل إليه من آثارها فى الكون ، مالم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذى وصل إليهم بما اقترفه سلفهم (٦ : ١١ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين) وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب .

عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ، ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم ، وقولهم (٣١ : ٢١ بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا (٤٣ : ٢٢ إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون) .

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، ورده إلى مملكته ، يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع فى ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ، ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها .

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان ، طالما حرم منهما ، وهما استقلال الإرادة واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت له إنسانيته ، واستعد لأن يبلغ من السعادة ماهيأه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها . وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم : إن نشأة المدنية فى أوروبا إنما قامت على هذين الأصلين فلم تنهض النفوس للعمل ، ولم تتحرك العقول للبحث والنظر ، إلا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم ، وأن لهم حقا فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ، ولم يصل إليهم هذا النوع من العرفان إلا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح . وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سطع عليهم من آداب الإسلام . ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان .

رفع الإسلام بكتابه المنزل ماكان قد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الكتب السماوية ، استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لأنفسهم ، وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ، ولم يسلك مسلكهم ، لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة ، أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعا من تلك الكتب ، لكن على شريطة أن لا يفهموها ، وأن لا يطيلوا أنظارهم إلا ماترمى إليه

ثم غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم إلا قليلا ، ورموا عقولهم بالقصور عن إدراك ما جاء فى الشرائع والنبوات ، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبداً بالأصوات والحروف(١) فذهبوا بحكمة الإرسال ، فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا فقال (٢ : ٧٨ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) (٦٢ : ٥ مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله . والله لا يهدى القوم الظالمين) .

أما « الأمانى » ففسرت بالقراءات والتلاوات أى لا يعلمون منه إلا أن يتلوه . وإذا ظنوا أنهم على شىء مما دعا إليه فهو عن غير علم بما أودعه . وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً . وإذا عن لأحدهم أن يبين شيئاً من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته إلى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة ، واعتسف فى التأويل

(١) أى : ووقفوا بأنفسهم كما وقفوا بالناس المقلدين لهم عند ألفاظ الكتاب دون معانيه ومقاصده ، وكذلك فعل الذين اتبعوا سنتهم من المسلمين مصداقاً لما أنبأ به الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأما تعبدنا بالقرآن فهو لأجل تدبره والاهتداء به ، ثم لأجل حفظه وتبليغه . فهما مقصدان .

وقال هذا من عند الله (٢ : ٧٩ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا) أما الذين قال : إنهم لم يحملوا التوراة وهى بين أيديهم بعد ما حملوها (١) . فهم الذين لم يعرفوا منها إلا الألفاظ ، ولم تسم عقولهم إلى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام . فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها ، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بإزالها ، فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به : مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب ، وقصم الظهر وانبهار النفس وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال . فما كان سببا فى إسعادهم ، وهو التنزيل والشريعة ، أصبح سببا فى شقائهم بالجهل والغباوة .

وبهذا التقريع ونحوه ، وبالدعوة العامة إلى الفهم ، وتمحيص الألباب للتفقه واليقين — مما هو منتشر فى القرآن العزيز — فرض الإسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه وما قرر من شرعه ، وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط بإعداد ما لا بد منه للفهم ، وهو سهل المنال على الجمهور

(١) حملوها : بضم الحاء وتشديد الميم : كلفوا حملها وذلك قوله تعالى لموسى كما حكاه فى القرآن (فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها) .

الأعظم من المتدينين ، لا تختص به طبقة من الطبقات ، ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات .

جاء الإسلام والناس شيع فى الدين ، وإن كانوا — إلا قليلا — فى جانب [1] عن اليقين ، يتنابزون ويتلاعنون ، ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون . فرقة وتخالف وشغب يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب . أنكر الإسلام ذلك كله وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الأزمان ، وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد قال الله تعالى (٣ : ١٩ إن الدين عند الله الإسلام . وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم) (٣ : ٦٧ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) (٤٢ : ١٣ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه) (٣ : ٦٤ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) وكثير من ذلك يطول إيراده فى هذه الوريقات ، والآية الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا إليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة

(١) أى بمعزل ، وقد تكرر هذا الاستعمال فى كلامه .

الحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه — معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته .

نص الكتاب على أن دين الله فى جميع الأزمان هو إفراده بالربوبية ، والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر (١) وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنه كتبه التى أنزلها على المصطفين من رسله ، ودعا العقول إلى فهمه منه والعزائم إلى العمل به ، وأن هذا المعنى من الدين ، هو الأصل الذى يرجع إليه عند هبوب ريح التخالف ، وهو الميزان الذى توزن به الأقوال عند التناصف ، وأن اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الإلهية فى الإنعام على البشر به ، ذهب الخلاف وتراجعت القلوب إلى هداها ، وسار الكافة فى مراشدهم إخواناً بالحق مستمسكين ، وعلى نصرته متعاونين .

---

(١) قوله « مما هو الخ » صفة لما أمر به ونهى عنه كاشفة لا مفهوم لها ، والسياق استئناف لبيان وحدة الدين الجملة فيما قبله فصل فيه ما اتحد فيه الدين من أصول ومقاصد ، ثم ما اختلف فيه من شرائع ومناهج ، المنصوص فى قوله تعالى (٥ : ٤٨ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا) مع الإلمام بحكمة ذلك ، وهو من الحقائق التى لم يسبقه إليها سابق .

أما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة سابقها مع لاحقها ، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها ، فمصدره رحمة الله ورأفته فى إيتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان . وكما جرت سنته — وهو رب العالمين — بالتدريج فى تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً ، إلى راشد فى عقله ، كامل فى نشأته ، يخرق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه فى تربية الأمم ، فلم يكن من شأن الإنسان فى جملته ونوعه أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله إلى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته فى النمو قائماً على ما قررته الفطرة الإلهية فى شأن أفراده ، وهذا من البديهيات التى لا يصح الاختلاف فيها ، وإن اختلف أهل النظر فى بيان ما تفرع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة ، فلا نطيل الكلام فيه هنا .

(ترقى الأديان بترقى الإنسان ، وإكمالها بالإسلام [١])

جاءت الأديان والناس من فهم مصالحهم العامة ، بل والخاصة ، فى طور أشبه بطور الطفولية للناشىء الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه إلا ما وقع تحت حسه ، ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتناول بذهنه من المعانى مالا يقرب من لمسه ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيرته أو بنى جنسه . فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه ، فى هم شاغل عما يلقى إليه فيما يصله بغيره ، اللهم إلا يداً تصل إلى فمه بطعام ، أو تسنده فى قعود أو قيام فلم يكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان ، أو يرقى إليه بسلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن ، لا يأتيه إلا من قبل ما يحسه بسمعه أو ببصره .

---

(١) العنوان للناشر ، وهو لتنبيه ذهن القارىء ، فإن الموضوع من أهم حكم الدين ، وحجة علمية اجتماعية على نسخ الإسلام لما قبله من الشرائع وعلى كونه الدين الأخير الذى لا يحتاج البشر إلى الأنبياء والوحى السماوى بعده ، وقد اشتدت الحاجة إلى بيان ذلك فى هذا العصر ، ولم يسبق الأستاذ الإمام إليه أحد فيما نعلم .

فأخذتهم بالأوامر الصادعة ، والزواجر الرادعة ، وطالبتهم بالطاعة ، وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة ، كلفتهم بمعقول المعنى جلى الغاية ، وإن لم يفهموا معناه ، ولم تصل مداركهم إلى مرماه ، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم ، وتنفعل به مشاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه (١) .

ثم مضت على ذلك أزمان علت فيهـــا الأقوام وسقطت ، وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت وتخالفت واتفقت ، وذاقت من الأيام آلاما ، وتقلبت فى السعادة والشقـاء أياما وأياماً . ووجدت الأنفس بنفث الحوادث ، ولقن الكوارث ، شعوراً أدق من الحس وأدخل فى الوجدان لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العواطف . ويناجى المراحم ، ويستعطف الأهواء ، ويحـــادث خطرات القلوب ، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها . ويوجه وجوههم نحو الملكوت الأعلى ، ويقتضى من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء فى وجوه الأغنياء ، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف ، وسن للناس سنناً فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه ، وما دعاهم إليه . فلاقى

(١) هذه صفة ديانات آخرها الديانة الموسوية ، وما يليها فهو صفة المسيحية .

من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسـدها ، وداوى من أمراضها ، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والأخذ بأقواله ، ووقر فى الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال ، فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ، ومزاحمة أهل الترف فى جمع الأموال ، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل .

هذا كان شأنهم فى السجايا والأعمال : نسوا طهارته ، وباعوا نزاهته ، أما فى العقائد فتفرقوا شيعاً ، وأحدثوا بدعاً ، ولم يستمسكوا من أصوله إلا بما ظنوه من أشد أركانها ، وتوهموه من أقوى دعائمها . وهو حرمان العقول من النظر فيه ، بل وفى غيره من دقائق الأكوان ، والحظر على الأفكار أن تنفذ إلى شىء من سرائر الخلقة فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل ، وأن الدين من أشد أعداء العلم ، ولم يكف الذاهب إلى ذلك أن يأخذ به نفسه ، بل جد فى حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة ، وأفضى الغلو فى ذلك بالأنفس إلى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الإنسانى وهى نزعة الحرب بين أهل الدين ، للالزام ببعض قضايا الدين ،

فتقوض الأصل وتخرمت العلائق بين الأهل ؛ وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان التعاون ، والحرب محل السلام . وكان الناس على ذلك إلى أن جاء الإسلام .

* * *

كانت سن الاجتماع البشري قد بلغت (١) بالإنسان أشده ، وأعدته الحوادث الماضية إلى رشده فجاء الإسلام يخاطب العقل ، ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع العواطف والإحساس في إرشاد الإنسان إلى سعادته الدنيوية والأخروية ، وبين للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله في جميع الأجيال واحد ، ومشيئته في إصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وأن رسم العبادة على الأشباح ، إنما هو لتجديد الذكرى في الأرواح ، وأن الله لا ينظر إلى الصور ، ولكن ينظر إلى القلوب ، وطالب المكلف برعاية جسده ، كما طالبه بإصلاح سره ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن ، وعد كلا الأمرين طهراً مطلوبا ، وجعل روح العبادة الإخلاص ، وأن ما فرض من

---

(١) ذكر الأستاذ الإمام ضمير السن هنا ، وفي تفسير جزء عم سهوا ، ثم إنه تنبه لكون السن مؤنثة فأمر بتصحيحها في جزء عم بعد طبعه ، ونسي تصحيحها هنا فصححناها اتباعاً لتصحيحه هناك ، وإن كان التأنيث مجازيا .

الأعمال ، إنما هو لما أوجب من التحلي بمكارم الأخلاق (٢٩ : ٤٥ إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (٧٠ : ١٩ إن الإنسان خلق هلوعا ٢٠ إذا مسه الشر جزوعا ٢١ وإذا مسه الخير منوعا ٢٢ إلا المصلين) ورفع الغنى الشاكر ، إلى مرتبة الفقير الصابر ، بل ربما فضله عليه ، وعامل الإنسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد ، فدعاه إلى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته ، وأن الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا وصول إلى خير العقبى ، إلا بالسعى فى صلاح الدنيا .

التفت إلى أهل العناد فقال لهم (٢ : ١١١ و ٢٧ : ٦٤ قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) وعنف النازعين إلى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ، ونص على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ، ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل ، فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، وسوغ مؤاكلتهم ، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن .

ومن المعلوم أن المجانسة هى رسول المحبة وعقد الألفة ، والمصاهرة

إنما تكون بعد التحابب بين أهل الزوجين والارتباط بينهما بروابط الائتلاف ، وأقل ما فيها محبة الرجل لزوجته وهى على غير دينه ، قال تعالى (٣٠ : ٢١ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم . ونص على أن لهم مالنا وعليهم ما علينا ، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك إلا زهيداً يقدمونه من مالهم ، ونهى بعد أداء الجزية (١) عن كل إكراه فى الدين ، وطيب قلوب المؤمنين فى قوله (٥ : ١٠٥ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فعليهم الدعوة إلى الخير بالتى هى أحسن ، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الإسلام

---

(١) فيه أن النهى عن الإكراه فى الدين نزل قبل سورة براءة التى شرع فيها أخذ الجزية ، فالإكراه فى الدين ممنوع فى الإسلام مطلقاً . ولكن إذا أراد المسلمون محاربة قوم من الكافرين لتعديهم عليهم ، أو تهديدهم لدعوتهم مثلا ، وجب عليهم أن يدعوهم أولا إلى الإسلام بالاختيار ، فإن أسلموا حرم قتالهم ، وإن لم يسلموا دعوهم إلى أداء الجزية إن كانوا من أهلها ، كأنهم يقولون لهم : إنكم ألجأتمونا إلى حربكم فنحن نقدم عليها إلا أن تسلموا أو تؤدوا الجزية ، وهذا لا يمنع من الصلح إذا اتفق عليه الفريقان .

فإن نوره جـــدير أن يخترق القلوب . وليست الآية فى الأمر بالمعروف بين المسلمين ، فإنه لا اهتداء إلا بعد القيام به — كل ذلك ليرشد الناس إلى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ، ولكن ليهديهم إلى الخير فى جميع نواحيه .

رفع الإسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية . وقرر لكل فطرة شرف النسبة إلى الله فى الخلقة ، وشرف اندراجها فى النوع الإنسانى فى الجنس والفصل والخاصة . وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها ، على خلاف مازعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم ، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم (١) فأماتوا بذلك الأرواح فى معظم الأمم ، وصيروا أكثر الشعوب هياكل وأشباحا .

هذه عبادات الإسلام على مافى الكتاب وصحيح السنة ، تتفق على مايليق بجلال الله وسمو وجوده عن الأشباه ، وتلتئم مع المعروف

(١) هذا الامتياز لا يزال يدعيه أكثرهم ولا سيما الأفرنج ، وأفحشه كون الهندوس ثلاث طبقات : الطبقة السفلى تعد رجسا عند من فوقها لاتشاركها فى اجتماع ولا عبادة ولا مخالطة .

عند العقول السليمة ـ فالصلاة ركوع وسجود ، وحركة وسكون ودعاء وتضرع ، وتسبيح وتعظيم ، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الإلهى الذى يغمر القوة البشرية ويستغرق الحول ، فتخشع له القلوب ، وتستخذى له النفوس ، وليس فيها شيء يعلو على متناول العقل إلا نحو تحديد عدد الركعات ، أو رمى الجمرات على أنه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير (١) وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المعنى مايخل بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير .

وأما الصوم (٢) فحرمان يعظم به أمر الله فى النفس وتعرف

---

(١) شبه الغزالى ذلك باختلاف مقادير الدواء المركب من أجزاء مختلفة بعضها كثير وبعضها قليل ، وكون هذا التفاوت فى القلة والكثرة يفوض إلى علم الطبيب الذى وصف الدواء ، وأن المريض يكفيه الثقة بعلمه والانتفاع بدوائه ، فإذا قال بعد ذلك : أنا لا أقبل منه الدواء إلا بعد أن أعلم فائدة كل جزء منه وفائدة مقداره ـ كان أحمق و مات بدائه ، وإن ثقة المؤمن بعلم الله وحكمته أقوى وأكمل من كل ثقة بغيره من طبيب وصيدلى وسواهما ، وزاد على ذلك ثبوت فائدة الصلاة والحج وسائر العبادات فى تطهير النفس من الشرور ونهيا عن الفحشاء والمنكر .

(٢) كان ينبغى أن يوضع هنا حكمة الزكاة ، ولكنه أخرها إلى مناسبة أخرى ، وستأتى فى ص ١٨١ .

به مقادير النعم عند فقدها، ومكانة الإحسان الإلهى فى التفضل بها (٢ : ١٨٤ كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون (١)) .

وأما أعمال الحج فتذكير الأنسان بأوليات حاجاته ، وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده - ولو فى العمر مرة - يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير ، والصعلوك والأمير ، ويظهر الجميع فى معرض واحد مكشوفى الرءوس متجردين عن المخيط ، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين ، كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى إبراهيم عليه السلام وهو أبو الدين ، واستقرار يقينهم على أن لاشىء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع . وهذا الإذعان الكريم فى كل عمل من أعمال العبادات الإسلامية مقرون بما يدل على التنزيه وتقديس الله عما يوهم التشبيه (٢)

---

(١) راجع تفسيرها وقول المؤلف فيها فى ص ١٥٧ ج ٢ من تفسير المنار طبعة أولى و ١٤٤ طبعة ثانية .

(٢) عبارة الرسالة الأولى هنا : وشعار هذا الإذعان الكريم فى كل عمل « الله أكبر » وكان المؤلف صحح العبارة فى حاشية نسخة الدرس هكذا « وهم مع هذا الإذعان الكريم فى كل عمل مقرون بما ينزه الله عن التشبيه والتجسيم » ثم صححها ثالثة فى الجدول بما أثبتناه هنا .

أين هذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين . يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد .

كشف الإسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير « العالم » والكون الصغير « الإنسان » فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم إنما يجرى أمرها على السنن الإلهية (١) التى قدرها فى علمه الأزلى لايغيرها شىء من الطوارىء الجزئية ، غير أنه لايجوز أن يغفل شأن الله فيها ، بل ينبغى أن يحيا ذكره عند رؤيتها ، فقد جاء على لسان النبى صلى الله عليه وسلم « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لايخسفان لموت أحد ولا لحياته . فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله حتى ينجلى » وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد ، لايقضى فيه إلا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها .

ثم أماط اللثام عن حال الإنسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التى يرزءون بها ، ففصل بين

---

(١) راجع تفسير قوله تعالى (٣ : ١٣٧ قد خلت من قبلكم سنن) وما قاله المؤلف فى تفسيرها فى الجزء السادس من المجلد الحادى عشر من المنار أو فى ص ١٣٨ من جزء التفسير الرابع .

الأمرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما . فأما النعم التى يمتع الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه ، فكثيرة منها كالثروة والجاه ، والقوة والبنين ، أو الفقر والضعة ، والضعف والفقد ، ربما لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج ، أو طاعة وعصيان ، وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظاراً لهم ، حتى يتلقاهم ما أعد لهم من العذاب المقيم فى الحياة الأخرى ، وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه ، وهم الذين إذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم فى التسليم بقولهم (٢ : ١٥٦ إنا لله وإنا إليه راجعون) فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ، ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل ، مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ، ولا فى تلك النعم الخاصة اللهم إلا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى [الع]ادة ، وكارتباط الفقر بالإسراف ، والذل بالجبن ، وضياع السلطان بالظلم ، وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الأغلب ، والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الأكثر ، وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر .

وأما شأن الأمم فليس على ذلك ، فإن الروح الذى أودعه الله

جميع شرائعه الإلهية من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول إلى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ، والتعاون على البر ، والتناصح فى الخير والشر . وغير ذلك من أصول الفضائل — ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها فى هذه الدنيا قبل الآخرة (٣ : ١٤٥ ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها[١]) ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هـذا الروح فيها : يزيد الله النعم بقوته ، وينقصها بضعفه ، حتى إذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة إلى مقره ، واستبدل الله عزة القوم بالذل[٢] وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين أو العادلين ، فأخذهم بهم وهم فى غفلة ساهون (١٧ : ١٦ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) أمرناهم بالحق ففسقوا عنه إلى الباطل ، ثم لا ينفعهم الأنين ، ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم إلا أن يلجئوا إلى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء

---

(١) راجع تفسير المؤلف لهذه الآية فى الجزء الرابع من تفسير المنار .

(٢) الصواب فى استعمال الاستبدال والتبدل أن تقرن الباء بالمبدل منه .

الرحمة برسل الفكر والذكر ، والصبر والشكر (١٣ : ١١ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (٣٣ : ٦٢ سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وما أجل ما قاله العباس ابن عبد المطلب فى استسقائه « اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب ، ولم يرفع إلا بتوبة » .

على هذه السنن جرى سلف الأمة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة . كان غيره يظن أنه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ماض فى غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنه من الحق شيئا (١) .

حث القرآن على التعليم وإرشاد العامة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقال (٩ : ١٢٢ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون) ثم فرض ذلك فى قوله (٣ : ١٠٤ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون ١٠٥ ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا

---

(١) يعنى أن المسلمين لما كانوا فى القرون الأولى يجرون على سنن الله تعالى فى أسباب السيادة والقوة كان بعض الشعوب كالنصارى مغرورين بدينهم يظنون أنهم ينالون كل شىء وتخرق لهم العوائد ببركة القديسين ودعائهم ، ثم انقلبت الحال كما ترى .

من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ١٠٦ يوم تبيض وجوه وتسود وجوه ، فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون ١٠٧ وأما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ١٠٨ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ١٠٩ ولله ما فى السموات وما فى الأرض وإلى الله ترجع الأمور) .

ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين ، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين ، أبرز حال الآمرين بالمعروف الناهين عن المنكر فى أجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال (٣ : ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله(١) فقدم ذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان فى هذه الآية مع أن الإيمان هو الأصل الذى تقوم عليه أعمال البر ، والدرجة التى تتفرع عنها أفنان الخير تشريفا لتلك الفريضة وإعلاء لمنزلتها بين الفرائض ، بل تنبيهاً على أنها حفاظ الإيمان وملاك أمره ، ثم شدد بالإنكار على قوم أغفلوها ، وأهل دين أهملوها ، فقال (٥ : ٧٨ لعن الذين كفروا

(١) راجع تفسير هذه الآية والآيات التى بعدها وما قاله المؤلف فيها فى الجزء الرابع من تفسير المنار .

من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ٧٩ كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه (١) .

☆ ☆ ☆

فرض الإسلام للفقراء فى أموال الأغنياء حقا معلوما يفيض به الغنى على الفقير ، سداً لحاجة المعدم ، وتفريجاً لكربة الغارم ، وتحريراً لرقاب المستعبدين ، وتيسيراً لأبناء السبيل ، ولم يحث على شىء حثه على الإنفاق من الأموال فى سبيل الخير ، وكثيراً ما جعله عنوان الإيمان ، ودليل الاهتداء إلى الصراط المستقيم ، فاستل بذلك ضغائن أهل الفاقة ، ومحص صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء ، وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ، فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين . وأى دواء لأمراض الاجتماع أنجع من هذا ؟ (٦٢ : ٤ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أغلق الإسلام بابى الشر وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريما باتا لا هوادة فيه .

---

(١) راجع تفسيرها فى جزء التفسير السادس .

لم يدع الإسلام بعد ما قررنا أصلا من أصول الفضائل إلا أتى عليه ، ولا أما من أمهات الصالحات إلا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام إلا قررها ، فاستجمع للإنسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا ، حرية الفكر ، واستقلال العقل فى النظر ، وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع ، وما فيه إنهاض العزائم إلى العمل ، وسوقها فى سبل السعى ، ومن يتل القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد ، وذخيرة لا تفنى .

هل بعد الرشد وصاية ؟ وبعد اكتمال العقل ولاية ؟ كلا قد تبين الرشد من الغى ، ولم يبق إلا اتباع الهدى ، والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين .

لهذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته كما صرح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة ، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده ، واطمئنان العالم بما وصل إليه من العلم إلى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه بأمر ، هكذا يصدق نبأ الغيب (٣٣ : ٤٠ ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما) .

انتشار الإســـلام

بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الأمم إلى الإصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك ، لكن يدهش عقل الناظر فى أحوال البشر عندما يرى أن هـذا الدين يجمع إليه الأمة العربية من أدناها إلى أقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ، ثم يتناول من بقية الأمم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد ، وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الأديان ، ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب ، واهتدى إليه المنصفون فبطل العجب .

ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الأديان ، ولقى من أعداء أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل : أوذى الداعى صلى الله عليه وسلم بضروب الإيذاء وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله . وعذب المستجيبون له ، وحرموا الرزق ، وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر ، يثبت الله بمشهـــدها المستيقنين ، ويقذف بها الرعب فى أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب ما فسد من طباعهم ، فتجرى من

مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الأطباء الحاذقين (٨ : ٣٧ ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون).

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الإسلام ليحصدوا نبتته. ويخنقوا دعوته، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف الأقوياء، والفقير الأغنياء، ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل، والرشد فى ظلمات الأضاليل. حتى ظفر بالعزة وتعذر بالمنعة، وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو إليها. وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان. وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره. ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحا ولا أنالهم القهر فلاحا.

ضم الإسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم. ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم وكان النبى ﷺ قد أبلغ رسالته بأمر ربه إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان، فهزءوا وامتنعوا، وناصبوه وقومه الشر، وأخافوا السابلة، وضيقوا على المتاجر، فغزاهم بنفسه، وبعث إليهم البعوث فى حياته؛ وجرى على سنته الأئمة من صحابته، طلباً الأمن، وإبلاغاً للدعوة، فاندفعوا

فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم ، وانهالوا به على تلك الأمم فى قوتها ومنعتها ، وكثرة عددها ، واستكمال أهبها وعددها ، فظفروا منها بما هو معلوم . وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين ، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم وإقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءاً قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة .

كانت الملوك من غير المسلمين إذا فتحوا مملكة أتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة إلى دينها ، يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ، ولم يعهد فى تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة ، وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانا عند ما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفاً .

رفع الإسلام ما ثقل من الأتاوات ، ورد الأموال المسلوبة إلى

أربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم .

بلغ أمر المسلمين فيما بعد أن لا يقبل إسلام من داخل فيه إلا بين يدى قاض شرعى بإقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة فى دنيا (١) .

وصل الأمر فى عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس فى دين الإسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة ، ولذلك أمر عمر بن عبد العزيز بتعزير مثل أولئك العمال (٢) .

عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمان ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الأعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم إلى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى أسبانيا .

اشتهرت حرية الأديان فى بلاد الإسلام حتى هجر اليهود أوربا فراراً منها بدينهم إلى بلاد الأندلس وغيرها .

(١) لقد كان هذا فى الدولة العثمانية والأقطار الخاضعة لسيادتها كمصر بنفوذ دول الإفرنج فيها وهو مخالف للشريعة الإسلامية ، ومخل بشرف الدولة .

(٢) شكا إليه عامله بمصر ذلك فأجابه : إن محمداً ﷺ بعث هادياً ، ولم يبعث جابياً ، وياله من جواب ممن آتاه الله الحكمة وفصل الخطاب .

هذا ما كان أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم ، وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئا من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن ما يثقل أداؤه على من ضربت عليه — فما الذى أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا وبذلوا فى خدمته مالم يبذله العرب أنفسهم ؟ .

ظهور الإسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال وسيره بسكانها على الجادة القويمة — حقق لقراء الكتب الإلهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه إبراهيم وإسماعيل وتحقيق استجابة دعاء الخليل (٢ : ١٢٩ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء أقوامها من بعدها (١)

(١) تراجع هذه البشارات فى تفسير قوله تعالى (٧ : ١٥٧ الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل) فى الجزء التاسع من تفسير المنار .

فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا إلى البقاء على العناد فى مجاحدته فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين .

أوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم إلى النظر فيه ، فوجدوا لطفاً ورحمة ، وخيراً ونعمة ، لا عقيدة ينفر منها العقل ، وهو رائد الإيمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق ، رأوا أن الإسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت ، يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الأعلى ، ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ، ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلت السريرة ، فإذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الإلهى ينتظره متى حسنت التوبة ، وكملت الأوبة .

تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرءوا القرآن ونظروا فى سيرة الطاهرين من حامليه إليهم ، وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل إلى فهمه وما تكفى جولة نظر فى الوصول إلى علمه (*) فتراموا إليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه .

(*) الأول : كالجمع بين التثليث والتوحيد . والثانى عالم الغيب غير المحال

كانت الأمم تطلب عقلا فى دين فوافاها، وتتطلع إلى عدل فى إيمان فأتاها، فما الذى يحجم بها عن المسارعة إلى طلبتها، والمبادرة إلى رغيبتها؟ كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق، وكان من حكمها أن لا يقام وزن لشئون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين. فجاء دين يحدد الحقوق، ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال، ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجداً فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع أضعاف قيمته، رفعت الشكوى إلى الخليفة فورد أمره برد بيتها إليها مع لوم الأمير على ما كان منه(١) عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم من هو، ويستوقفه معه للتقاضى إلى أن قضى الحق بينهما.

هذا وما سبق بيانه مما جاء به الإسلام هو الذى حببه إلى من كانوا أعداءه، ورد إليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه

(١) وقع هذا لامرأة قبطية مع أمير مصر وفاتحها عمرو بن العاص والخليفة التى أشكاها منه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الإسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم إلا بعد أن يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها من سواهم ، ثم لايكون إلا طائفا يحل ثم يرتحل ، فإذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب إلى سابق ما ألفته من اللين والمياسرة ، ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الإسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم ، لم يقف الإسلام فى انتشاره عند حد . خصوصاً فى الصين وفى أفريقيا ، ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع إلى الأخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع إليه : لاسيف وراءها ، ولا داعى أمامها ، وإنما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه ، مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه .

ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الإسلامى ، وإقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة إنما كان لسهولة تعقله ، ويسر أحكامه وعدالة شريعته ، وبالجملة لأن فطر البشر تطلب ديناً وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها ، وأقرب إلى قلوبها ومشاعرها . وأدعى إلى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة ، ودين هذا شأنه يجد إلى القلوب منفذاً وإلى العقول مخلصاً ، وبدون حاجة إلى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة ، والأوقات الطويلة ، ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لإسقاط النفوس فيه .

وهكذا كان حال الإسلام فى سذاجته الأولى، وطهارته التى أنشأه الله عليها . ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الأرض إلى اليوم .

* * *

قال من لم يفهم ماقدمناه أو لم يرد أن يفهمه : إن الإسلام لم يطف على قلوب العـــالم بهذه السرعة إلا بالسيف ، لقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن بإحدى اليدين والسيف بالأخرى . يعرضون القرآن على المغلوب فإن لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته

سبحانك هذا بهتان عظيم ! ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ماتواترت به الأخبار تواتراً صحيحا لايقبل الريبة فى جملته ، وإن وقع اختلاف فى تفصيله . وإنما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم ، وكفا للعدوان عنهم ، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم إلا أنهم جاوروهم وأجاروهم . فكان الجوار طريق العلم بالإسلام ، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال إليه .

لو كان السيف ينشر دينا (١) فقد عمل فى الرقاب للإكراه على

(١) هذا بيان لما فعله الإفرنج من نشر النصرانية بالإكراه ، وقهر القوة العسكرية قبل الإسلام وبعده ، وهو الذى اتهموا به المسلمين من بعد ، زوراً وبهتاناً .

الدين والإلزام به مهدداً كل أمة لم تقبله بالإبادة والمحو من سطح البسيطة ، مع كثرة الجيوش ووفرة العدد ، وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها ، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الإسلام بثلاثة قرون كاملة ، واستمر فى شدته بعد مجىء الإسلام سبعة أجيال أو يزيد . فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الإسلام فى أقل من قرن ، هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدم خطوة إلا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته . مع غيرة تفيض من الأفئدة ، وفصاحة تتدفق عن الألسنة ، وأموال تخلب ألباب المستضعفين (إن فى ذلك لآيات للمستيقنين) .

* * *

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين ، سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية ، أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية ، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها ، وتعلو أهل الأرض بمدنيتها ، زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها ، قالوا كان لا يخلو غلب (بالتحريك) قلنا تلك سنة الله فى الخلق : لا تزال المصارعة بين الحق والباطل . والرشد والغى ، قائمة فى هذا العالم إلى أن يقضى الله قضاءه فيه . إذا ساق الله ربيعاً إلى أرض

جدبة ليحيي ميتها ، وينقع غلتها ، وينمى الخصب فيها ، أفينقص من قدره أن أتى فى طريقه على عقبة فعلاها ، أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟

سطع الإسلام على الديار التى بلغها أهله(١) فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه إلا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه ، واشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً ، فوقف وقفة القائد خذله الأنصار ، وكاد يتزحزح إلى ماوراءه ، لكن الله بالغ أمره فانحدرت إلى ديار المسلمين أمم من التتار يقودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل ، وكانوا وثنيين ، جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ، ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الإسلام ديناً . وحملوه إلى أقوامهم فعممهم منه ماعم غيرهم : جاءوا لشقوتهم فعادوا بسعادتهم .

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة (٢) لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه إلا اشترك فيها ، واستمرت المجالدات بين الغربيين

---

(١) بيان لما فعله الإسلام من هداية شعوب الأعاجم فى أثر بيان ما فعله فى العرب .

(٢) بيان للحروب الصليبية لإبادة الإسلام من الشرق ، وينبغى لكل مسلم أن يعرف تفصيلها وما استفاده الأوربيون من فضائل الإسلام التى حملتهم على إصلاح أمور دينهم ودنياهم ، وأكثر المسلمين يجهلون هذا .

والشرقيين أكثر من مائتى سنة جمع فيها الغربيون من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل ، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم ، وزحفوا إلى ديار المسلمين ، وكانت فيهم بقية من روح الدين ، فغلب الغربيون على كثير من البلاد الإسلامية انتهت تلك الحروب الجارفة بإجلائهم عنها .

لم جاءوا وبماذا رجعوا ؟ ظفر رؤساء الدين فى الغرب بإثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب على مايعتقدون لأنفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الإسلامية ، جاء من الملوك والأمراء وذوى الثروة وعلية الناس جم غفير ، وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين ، استقر المقام بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين ؛ وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول إلى سكينتها . تنظر فى أحوال المجاورين ، وتلتقط من أفكار المخالطين ، وتنفعل بما ترى وماتسمع فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الأحلام ، وجسمت الآلام . لم تصب مستقر الحقيقة، ثم وجدت حرية فى دين ، وعلماً وشرعاً وصنعة مع كمال فى يقين، وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الإيمان لامن العوادى عليه ، ثم جمعت من الآداب ماشاء الله وانطلقت إلى بلادها قريرة العين مما غنمته من جلادها ، هذا إلى ما كسبه السفار

من أطراف الممالك إلى بلاد الأندلس . بمخالطة حكمائها وأدبائها ، ثم عادوا به إلى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا ، وأخذت الأفكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ، ونزعت العزائم إلى تقييد سلطان زعماء الدين ، والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه ، وحرفوا فى معناه ، ولم يكن بعد ذلك إلا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو إلى الإصلاح والرجوع بالدين إلى سذاجته وجاءت فى إصلاحها بما لا يبعد عن الإسلام إلا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الإصلاح فى العقائد (١) إلى ما يتفق مع عقيدة الإسلام إلا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وأن ماهم عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسماً ولا يختلف معنى إلا فى صورة العبادة لا غير .

ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها ، وتصلح من شئونها حتى استقامت أمور دنياها على مثل مادعا إليه الإسلام ، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت أصول المدنية الحاضرة ، التى تفاخر بها الأجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الأزمان الغابرة .

هذا طل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت

(١) هم طائفة الموحدين ، وأكثرهم من الإنجليز والأميركان

من كل زوج بهيج ، جاء القوم ليبيدوا ، فاستفادوا وعادوا ليفيدوا . ظن الرؤساء أن فى إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم ، وتقوية ركنهم . فباءوا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم ، وما بيناه فى شأن الإسلام — ويعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه ، واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم (١) وإلى الله عاقبة الأمور .

إيراد سهل الايراد

يقول قائلون : إذا كان الإسلام إنما جاء لدعوة المختلفين إلى الاتفاق وقال فى كتابه (٦ : ١٥٩ إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم فى شىء) فما بال الملة الإسلامية قد مزقتها المشارب ، وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟

إذا كان الإسلام موحداً فما بال المسلمين عددوا ؟ إذا كان مولياً وجه العبد وجهة الذى خلق السموات والأرض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم إلى من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا يستطيع من دون الله خيراً ولا شراً ، وكادوا يعدون ذلك فصلا من فصول التوحيد ؟

---

(١) قد أورد المؤلف الشواهد على هـــذا فى كتابه (الاسلام والنصرانية)

إذا كان أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر فى الأكوان وأطلق له العنان ، يجول فى ضمائرها بما يسعه الإمكان ، ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الإيمان ، فما بالهم قنعوا باليسير ؟ وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ، ظنا منه أنه قد يرضى الله بالجهل وإغفال النظر فيما أبدع من محكم الصنع ؟

ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة أصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ ما بالهم بعد أن كانوا قدوة فى الجد والعمل ، أصبحوا مثلا فى القعود والكسل ؟

ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم ، وكتاب الله بينهم ، يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوه ، وبين ما دعاهم إليه فتركوه ؟ .

إذا كان الإسلام فى قربه من العقول والقلوب على ما بينت ، فما باله اليوم على رأى القوم تقصر دون الوصول إليه يد المتناول ؟ .

إذا كان الإسلام يدعو إلى البصيرة فيه ، فما بال قراء القرآن لا يقرءونه إلا تغنياً ، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم إلى تظنياً ؟

إذا كان الإسلام منح العقل والإرادة شرف الاستقلال . فما بالهم شدوهما إلى أغلال أى أغلال ؟

إذا كان قد أقام قواعد العدل فما بال أغلب حكامهم يضرب بهم المثل فى الظلم ؟

إذا كان الدين فى تشوف إلى حرية الأرقاء . فما بالهم قضوا قروناً فى استعباد الأحرار ؟

إذا كان الإسلام يعد من أركانه : حفظ العهود والصدق والوفاء . فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟

إذا كان الإسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه ؟

إذا كان قد حرم الفواحش ماظهر منها وما بطن ، فما هذا الذى تراه بينهم فى السر والعلن ، والنفس والبدن ؟

إذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين خاصتهم وعامتهم و (إن (١) الإنسان لفى خسر ٭ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وأنهم إن لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم فيدعو خيارهم فلا يستجاب لهم (٢) وشدد فى ذلك بما لم يشدد فى غيره . فما بالهم لايتناصحون ولا يتواصون بحق ولا يعتصمون بصبر ، ولا يتناصحون فى خير ولا شر ؟ بل ترك كل صاحبه . وألقى حبله على غاربه ، فعاشوا أفذاذاً ، وصاروا فى أعمالهم أفراداً . لايحس

---

(١) « إن » هنا مكسورة حكاية لنص القرآن . أى وصرح بهذا النص

(٢) هو مضمون حديث مرفوع ، رواه البزار والطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة .

أحدهم بما يكون من عمل أخيه كأنه ليس منه ، وكأنه لم تجمعه معه صلة ، ولم تضمه إليه وشيجة .

ما بال الأبناء يقتلون الآباء ؟ وما بال البنات يعققن الأمهات ؟ أين وشائج الرحمة ؟ أين عاطفة الرحم على القريب ؟ أين الحق الذى فرض فى أموال الأغنياء للفقراء . وقد أصبح الأغنياء يسلبون ما بقى فى أيدى أهل البأساء ؟

قبس من الإسلام أضاء الغرب كما تقول وضوؤه الأعظم وشمسه الكبرى فى الشرق ، وأهله فى ظلمات لا يبصرون أصح هذا فى عقل ؟ أو عهد فى نقل ؟ ألم تر إلى الذين تذوقوا من العلم شيئا وهم من أهل هذا الدين أول مايعلق بأوهام أكثرهم أن عقائده خرافات ، وقواعده وأحكامه ترهات ؟ ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا أنفسهم أحرار الأفكار ، وبعداء الأنظار ، وإلى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ، ووسموا أنفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه . كيف يحافون علوم النظر ويهزءون بها ، ويرون العمل فيها (١) عبثاً فى الدين والدنيا ، ويفتخر الكثير منهم بجهلها ، كأنه فى ذلك قد هجر منكراً ، وترفع عن دنيئة ، فمن وقف على باب العلم من المسلمين ، يجد دينه كالثوب الخلق يستحى أن يظهر به بين الناس ، ومن غرته نفسه بأنه على

(١) اى فى ضمن ما أرشدت إليه من النظم والفنون والصناعات .

شيء من الدين وأنه مستمسك بعقائده ، يرى العقل جنة . والعلم ظنة ، أليس فى هذا ما يشهد الله وملائكته والناس أجمعين ، على أن لاوفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟ !

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم بل من عدة أجيال، وربما كان ماجاء فى الإيراد قليلا من كثير ، وقد وصف الشيخ الغزالى رحمه الله وابن الحاج وغيرهما(١) من أهل البصر فى الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم عامتهم وخاصتهم بما حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت فى خاصة الدين الإسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن ، مع التدقيق فى فهم معانيه وحملها على مافهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ، ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخ على ما كتبه محققو الإسلام ومنصفو سائر الأمم ، فذلك هو الإسلام . وقد أسلفنا أن الدين هدى وعقل ، من أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشد إليه ، نال من السعادة ما وعد الله على اتباعه . وقد جرب علاج الاجتماع الإنسانى بهذا الدواء فظهر نجاحه ظهوراً لايستطيع معه الأعمى إنكاراً . ولا الأصم إعراضاً ، وغاية ما قيل فى الإيراد أن

---

(١) كالشاطبى فى كتابه «الاعتصام» والبركوى فى كتابه «الطريقة المحمدية»

أعطى الطبيب المريض دواء فصح المريض (١) وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته ، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه ، وهو فى يأس من حياته ، ينتظر الموت أو تبدل سنة الله فى شفاء أمثاله .

كلامنا اليوم فى الدين الإسلامى وحاله على ما بيناه وأما المسلمون وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن ، وسيكون الكلام عنهم فى كتاب آخر إن شاء الله (٢) .

﴿ التصديق بما جاء به النبى محمد صلى الله عليه وسلم ﴾

بعد أن ثبتت نبوته عليه السلام بالدليل القاطع على ما بيناه ، وأنه إنما يخبر عن الله تعالى ، فلا ريب أنه يجب تصديق خبره . والإيمان

(١) إن هذا المريض الذى شفى من أمراض الجهل والتقليد والرق للملوك ورؤساء الدين ، قد أنهكته أمراض أخرى اشتدت عليه فى هذا العصر منشؤها عبادة المادة ، وفوضى الدين والآداب ، وإباحة الفواحش ، ولا علاج له إلا بدواء الإسلام ، وأين يجده وأهله يقلدونه فى تلقيح أنفسهم بجميع سموم أمراضه على أمراضهم الأولى .

(٢) راجع فى هذا كتاب « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » له رحمه الله ، فقد وفى فيه بوعده هذا ، وهو كتاب لا يستغنى عن قراءته مسلم فى العصر ، بل قال أحد أولى البصيرة من المسلمين إنه ينبغى قراءته فى كل سنة ولو مرة واحدة ، وان قارئه ليجد فيه شرحاً لكثير من المسائل المجملة فى هذه الرسالة .

بما جاء به ، ونعنى بما جاء به ، ماصرح به الكتاب العزيز ، وما تواتر الخبر به تواتراً صحيحاً مستوفياً لشرائطه ، وهو ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس ـ ومن ذلك أحوال ما بعد الموت من بعث ونعيم فى جنة ، وعذاب فى نار ، وحساب على حسنات وسيئات وغير ذلك مما هو معروف .

ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ولا تجوز الزيادة على ماهو قطعى بظنى ، وشرط صحة الاعتقاد أن لا يكون فيه شىء يمس التنزيه وعلو المقام الإلهى عن مشابهة المخلوقين فإن ورد مايوهم ظاهره ذلك فى المتواتر ، وجب صرفه عن الظاهر إما بتسليم لله فى العلم بمعناه مع اعتقاد أن الظاهر غير مراد أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة (١) .

(١) الواجب أن يحمل الخبر على معنى يتفق مع التنزية الثابت بالنقل والعقل تدل عليه أساليب اللغة . مع العلم بأن كل ما وصف الله تعالى به نفسه قد جاء بالكلام الذى وضعه الناس لخلقه ؛ فهو كاصطلاحات العلوم والفنون ، فلا يقتضى أن يكون معناه فى وصف الله تعالى عين معناه فى وصف الخلق من كل وجه ، بل يكفى أن يكون مناسباً له ، فعلم الله وقدرته وكلامه ورحمته وحبه وغضبه ، ليست من الأحوال والأعراض النفسية ، ويده وأصابعه ليست من الجوارح الجسمية ، وخلقه ورزقه واستواؤه على عرشة ليس من الحركات البدنية ، وليست معانيها مخالفة لمدلولها بالكلية ، وهذا معنى قول السلف : الاستواء معلوم ، والكيف مجهول ، ومنه مسألة الرؤية الآتية ، وقاعدتهم فى ذلك أن نصفه تعالى بما وصف به نفسه ، بغير تعطيل ولا تمثيل ولا تاويل كما تقدم فى الكلام على الصفات .

أما أخبار الآحاد فإنما يجب الإيمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها . وأما من لم يبلغه الخبر أو بلغه وعرضت له شبهة فى صحته وهو ليس من المتواتر فلا يطعن فى إيمانه عدم التصديق به والأصل فى جميع ذلك أن من أنكر شيئاً [١] وهو يعلم أن النبى صلى الله عليه وسلم حدث به أوقرره فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها ، ويلحق به من أهمل العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة ، وهو مافى الكتاب وقليل من السنة فى العمل [٢]

من اعتقد بالكتاب العزيز وبما فيه من الشرائع العملية وعسر عليه فهم أخبار الغيب على ما هى عليه فى ظاهر القول وذهب بعقله إلى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها مع الاعتقاد بحياة بعد الموت وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد ، بحيث لاينقص تأويله شيئاً من قيمة الوعد والوعيد ولا ينقص شيئاً من بناء الشريعة فى التكليف ، كان مؤمنا حقا وإن كان لايصلح اتخاذه قدوة فى تأويله [٣] فإن الشرائع الإلهية قد نظر فيها إلى ما تبلغه طاقة العامة لا إلى ماتشتهيه عقول الخاصة ، والأصل فى ذلك أن الإيمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد فى ذلك إلا احترام

(١) أى من أمر الدين الذى هو موضوع الرسالة والتبليغ عن الله تعالى

(٢) أكثر السنن المتواترة هى العملية كصفة الصلاة والحج ، وأما الأحاديث القولية المتواترة ، فقيل : إنها لا تبلغ اقصى جمع القلة .

(٣) يعنى أن التاويل بهذه الشروط لا ينافى صحة الإسلام ، فلا يباح تكفير صاحبه إلا أنه لايقتدى به فيه ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة

ماجاء به على ألسنة الرسل .

بقيت علينا مسألتان وضعتا من هذا العلم فى مكان من الاهتمام وما هما منه إلا حيث يكون غيرهما مما أجملنا القول فيه (الأولى) جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة . (والأخرى) جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات من غير الأنبياء : من الأولياء والصديقين .

أما الأولى : فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى إلى وفاق بين المنزهين لامجال معه للتنازع ، فإن القائلين بجواز الرؤية من أهل التنزية متفقون على أن الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة . بل هى رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، ومثلها لا يكون إلا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة ، أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة الدنيا (١) وهو ما لا يمكننا معرفته ، وإن كنا نصدق بوقوعه متى صح الخبر ، والمنكرون

---

(١) الإدراك فى الحقيقة للروح ، وإنما الحواس آلات لها ، وقد ثبت بالتجارب القطعية لدى علماء الشرق والغرب فى هذا العصر . أن من الناس من يبصر ويقرأ ، وهو مغمض العينين ، فيما يسمونه قراءة الأفكار . ويبصر بعض الأشياء دون بعض فى العمل النومى ، ومنهم من يبصر الشىء مع الحجب الكثيرة ، والبعد الشاسع ، كمن أبصر وهو بمصر قريبه فى الإسكندرية خارجا من داره إلى المحطة — إلى آخر ما تقدم فى حاشية ص ١١٣ فإذا كان هذا قد ثبت فى هذا العالم على خلاف المألوف فى الرؤية لكل الناس - فهل يليق بعاقل أن يستشكل ما هو =

لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها ، فسواء كان ذلك بالبصر غير المعهود أو بحاسة أخرى فهو فى المعنى يرجع إلى قول خصومهم ولكن منى الإسلام بقوم يحبون الخلاف والله فوق ما يظنون .

وأما الثانية : فأنكر جواز وقوع الكرامات أبو إسحق الاسفراييني من أكابر أتباع أبى الحسن الأشعرى (١) ، وعلى ذلك المعتزلة ، إلا أبا الحسين البصرى فقال بجواز وقوعها ، وعليه جمهور الأشاعرة . واستدل الذاهبون إلى الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم من الكتاب الواردة فى خبر بلقيس من إحضاره عرشها قبل ارتداد الطرف ، وقصة مريم عليها السلام وحضور الرزق عندها ، وقصة أصحاب الكهف .

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات ، وأولوا ما جاء فى الآيات : أما أن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات ، فليس

= أغرب منه ، وأبعد عن المألوف فى الجنة ، وهى من عالم الغيب المخالفة سننه ونواميسه لعالم الشهادة ، وهل كان استشكال منكرى الرؤية إلا بسبب قياس عالم الغيب على عالم الدنيا فى الرؤية والمرئى ؟ وهو قياس باطل وبطلانه فى المرئى أظهر ، وقد حررت هذه المسألة فى تفسير المنار بتفصيل أثرى سلفى عصرى طويل فليراجع فى تفسير الآية ١٤٢ من سورة الأعراف ص ١٢٢ - ١٧٨ ج ٩ تفسير .

(١) وكذلك الحليمى من أكابرهم .

بصحيح ، لأن المعجزات إنما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ولا بد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها .

وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه . لأن ما فى قصة مريم وآصف(١) قد يكون بتخصيص من الله تعالى لوقوعه فى عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون الله فى أنبياء ذلك العهد إلا قليلا .

وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته فى خلقه ، وذكرنا بها لنعتبر بمظاهر قدرته ، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز . فصار البحث فى جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث فى متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير ،

---

(١) قال بعض المفسرين فى تفسير (قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك)إنه وزير لسليمان اسمه آصف ابن برخيا ، فجاراهم المؤلف فى ذلك تنزلا ، ولكن هذا لم يثبت فى قرآن ولا حديث مرفوع ، وإنما هو من الإسرائيليات ، وقال بعضهم . إنه سليمان نفسه ، ورجحه النيسابورى ، وقال بعضهم إنه جبريل ، وبعضهم إنه ملك آخر . وجملة القول . أن إحضار العرش معجزة لنبى الله سليمان عليه السلام لا حجة فيها على مسألة الكرامات .

كذلك ما قالوه فى مسألة الرزق عند مريم ، وأنه كان فاكهة الصيف فى الشتاء وعكسه ، لم يصح فيه حديث مرفوع فهو من الإسرائيليات كما بينته فى تفسير المنار .

وفى مكان الأعمال الصالحة وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الإلهية ، وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر .

وأما مجرد الجواز العقلى وأن صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الإلهية فلا أظن أنه موضع نزاع يختلف فيه العقلاء ، وإنما الذى يجب الالتفات إليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على أنه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الإسلام ، فيجوز لكل مسلم بإجماع الأمة أن ينكر صدور أى كرامة كانت من أى ولى كان ولا يكون بإنكار هذا مخالفا لشىء من أصول الدين ولا مائلا عن سنة صحيحة ولا منحرفا عن الصراط المستقيم اللهم إلا أن يكون مما صح فى السنة عن الصحابة .

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات ، أصبحت من ضروب الصناعات ، يتنافس فيها الأولياء ، وتتفاخر فيها هم الأصفياء[١] وهو مما يتبرأ منه الله ودينه وأولياؤه وأهل العلم أجمعون ؟

---

(١) بل يزعمون أن هؤلاء الأصفياء ، ولا سيما الموتى المشهورين كالذين يسمونهم الأقطاب الأربعة هم المتصرفون فى شئون العالم كله مع الله وأنهم يقضون حاجات الذين يدعونهم من دون الله بالخوارق الممنوحة لهم من نفع وضر وغير ذلك ! (لا إله إلا الله وحده لاشريك له) .

خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ، يعبدوننى لايشركون بى شيئا ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) وقد فسر الكفر فى هذه الآية بكفر النعمة .

(وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخسا ولا رهقا * وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشداً * وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا * وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا * لنفتنهم فيه ، ومن يعرض عن ذكر ربه يسلكه عذابا صعداً * وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً * وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً * قل إنما أدعو ربى ولاأشرك به أحداً * قل إنى لاأملك لكم ضراً ولارشدا * قل إنى لن يجيرنى من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحدا * إلا بلاغا من الله ورسالاته ، ومن يعص الله ورسوله ، فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا * حتى إذا رأوا مايوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرا وأقل عدداً * قل إن أدرى أقريب ما توعدون أم يجعل له ربى أمدا * عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * إلا من ارتضى من رسول ، فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا * ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا) .

صدق الله العظيم ، وبلغ رسوله الكريم ، وخسىء الشيطان الرجيم ، وحق الشكر لله رب العالمين ، الرحمن الرحيم .

تمت